محاضرات النقد في صدر الإسلام

لطلاب السنة الثالثة

قسم اللغة العربية

د. حمود يونس

المبحث الأول– موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء.

المبحث الثاني– النقد عند الرسول – صلى الله عليه وسلم–.

المبحث الثالث– النقد عند الخلفاء الراشدين:

١– النقد عند الخليفة عمر بن الخطاب– رضي الله عنه–

٢– النقد عند الخليفة علي بن أبي طالب– رضي الله عنه–

المبحث الرابع– خصائص النقد في عصر صدر الإسلام.

– نصوص نقدية للدراسة والتحليل.

المبحث الأول– موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء

وُجّهت للرسول– صلى الله عليه وسلم– اتهامات شتى من قبل خصومه ومناوئيه، بهدف الإساءة إليه، ومن ثم الإساءة إلى الدعوة التي جاء بها، منها اتهامه بالسحر والكهانة والجنون وقول الشعر وغير ذلك، وانبرى القرآن الكريم ليدافع عن الرسول، بدحض هذه الاتهامات، ورد هذه المزاعم والافتراءات التي لا أساس لها من الصحة، ولا تنسجم مع سيرة الرسول، ولا مع الدعوة الجديدة في شكلها وفي مضمونها لا من قريب ولا من بعيد، وما يعنينا من هذه الاتهامات هنا هو اتهامه بالشاعرية انسجاما مع ما نحن فيه من الحديث عن موقف القرآن الكريم من الشعر، الذي نفى عن الرسول تهمة الشاعرية نفيا قاطعا، فالرسول الكريم ليس شاعرا، ولا يقول الشعر، بل ما ينبغي له أن يكون شاعرا، فمهمته أسمى من قول الشعر، وأجلّ من نظم القريض، وقد تجلى ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى: "وما علَّمْناهُ الشعرَ وما ينبغي له إنْ هو إلا ذِكْرٌ وقرآنٌ مُبين"[1]، وقوله تعالى: "ويقولونَ أَئِنّا لَتارِكوا آلهَتِنا لشاعرٍ مجنون*بلْ جاءَ بالحقِّ وصدَّقَ المرسَلين"[2]، وقوله تعالى:" إنه لَقولُ رسولٍ كريم*وما هو بقولِ شاعرٍ قليلاً ما تؤمنون*ولا بقولِ كاهِنٍ قليلاً ما تَذَكَّرون*تنزيلٌ من ربِّ العالمين".[3]

ولعل الآيات في سورة الشعراء، وهي قوله تعالى:" والشعراءُ يتَّبِعهمُ الغاوون*ألَمْ تَرَ أنهم في كلِّ وادٍ يهيمون*وأنهم يقولونَ ما لا يفعلون*إلا الذين آمَنوا وعمِلوا الصالحاتِ وذكروا اللهَ كثيراً وانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ ما ظُلِموا وسَيَعْلَمُ الذين ظَلَمُوا أيَّ مُنْقَلَبٍ ينقلِبون".[4]هي الآيات المشكلة التي كثر الحديث عنها، واستفاض الباحثون في تناولها وتأويلها في القديم وفي الحديث، وكانت لهم فيها آراء كثيرة اتفق بعضها وتباين بعضها الآخر؛ واعتدل بعضها في التأويل، بينما أسرف بعضها الآخر واشتط، وسنحاول أن نقدم قراءة لهذه الآيات، نتبين من خلالها موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء، وتعكس فهمنا لها، ولحقيقة المراد فيها من دون أن نُحَمِّلَ النصَّ أكثر مما يحتمل، ومن دون الإسراف في التأويل، أو الشطط في الفهم.

---

(1) يس/٦٩.

(2) الصافات/٣٦-٣٧.

(3) الحاقة/٤٠-٤٣.

(4) الشعراء/ ٢٢٤-٢٢٧.

وهنا ينبغي أن نتذكَّرَ ونُذَكِّرَ بشرط أساسي من شروط القراءة الصحيحة والموضوعية، وهو أن قراءة النص ينبغي أن تشمل النص كله لا بعضه، وتستوفيه جميعا لا أن تقف عند بعضه وتترك بعضه الآخر، اعتمادا على أفكار مسبقة، واستنادا إلى آراء جاهزة ومحاولة إسقاطها على هذا النص أو ذاك، لأن قراءة كهذه القراءة، هي قراءة: ناقصة، وخاطئة، وجائرة، وغير موضوعية، وستنتهي إلى إصدار أحكام نقدية غير عادلة، وغير منصفة.

ولعل هذا هو ما حدث في قراءة هذه الآيات من قبل بعض العلماء والباحثين، إذ وقفوا عند جزء من هذه الآيات، وهي الآيات الثلاثة الأولى، وهي قوله تعالى:" والشعراء يتبعهم...." إلى قوله تعالى".... ما لا يفعلون"، ولم يقفوا عليها كلها، وهذا ما أوقعهم في المبالغة في التأويل، والبعد عن جوهر هذه الآيات، وما ترمي إليه وتقصده، ومن ثم تحميلها أكثر مما تحتمل من المعاني والمقاصد، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى أن القرآن الكريم وقف موقفا معاديا للشعر والشعراء، كل ذلك بسبب اجتزائهم للنص، ووقوفهم على جزء منه وليس عليه كله، لغايات كثيرة، وأهداف متنوعة، وأسباب متعددة، بعضها يتسم بالبراءة، وبعضها الآخر لا يخلو من شيء من الخبث، وسوء النية، والتطرف في التأويل، مثلهم في هذا مثل من يدس السم في الدسم.

ولا شك في أن اجتزاء هذه الآيات، والوقوف على الآيات الثلاثة الأول منها فقط، وعدم المتابعة وقراءة الآية الرابعة، سيؤدي بالقارئ إلى أن القرآن وقف موقفا سلبيا من الشعر والشعراء، فهذه الشريحة من البشر يتبعها الغاوون من الناس، والضالون من البشر، فهم يتحدثون في مختلف المواضيع، ويتناولون ما شاؤوا من المعاني، بطرائق تعكس ذاتيتهم، وآراءهم الخاصة في هذا المعنى أو ذاك، تلك الآراء التي قد لا تتسم بالموضوعية الكافية، ولا تتفق مع الواقع الاتفاق كله، ولا تنسجم مع الحقائق كما ينبغي، لأن دوافعها ذاتية، وطريقة التعبير عنها مختلفة، فلغة الشعر هي لغة المجاز، ولغة التخييل، وهذا ما يؤدي بالشاعر إلى البعد عن الحق أحيانا، ومجافاة الحقيقة أحيانا أخرى، بسبب التجاوز المفرط في تناول المعاني، والتعبير عنها، بشكل قد يخرج به عن الاعتدال في القول، والتوسط في التعبير، ونحو ذلك مما يميل إليه الخطاب الديني عموما، وهم إلى جانب ذلك كثيرو القول، قليلو الفعل، ولا تنسجم أقوالهم مع أفعالهم، فأقوالهم في واد، وأفعالهم في واد آخر.

ولكن متابعة قراءة الآيات تكشف لنا عن استثناء واضح في الآية الرابعة "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات....." إلى آخر الآية، وهذا يدل على أن موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء، هو موقف يتسم بالدقة والموضوعية والانتقائية والبعد عن التعميم الموهم، فهو يميز تمييزا واضحا بين طائفتين من الشعراء:

الطائفة الأولى: تتضمن شعراء الغواية والضلالة، وهم الشعراء الكفار المشركون. **والطائفة الثانية**: تشتمل على شعراء الهداية والإيمان، وهم الشعراء المؤمنون المهتدون. وهذا يعني بالضرورة أننا أمام نمطين من أنماط الشعر:

النمط الأول: هو شعر الضلالة والكفر والشرك.

والنمط الثاني: هو شعر الإيمان والهدى والصلاح.

ومن هنا فإن القرآن الكريم هو مع الطائفة الأولى من الشعراء، ومع النمط الأول منه، وفي المقابل فهو ضد الطائفة الثانية من الشعراء، وضد النمط الثاني منه، ومن هنا أيضا يمكن أن نحدد بعضا من سمات الشعر الذي يقف القرآن إلى جانبه، بل ويحض على نظمه، لضرورته القصوى في دعم الدعوة الناشئة، وترسيخ أسسها ومبادئها، ولذلك فهو مع كل شعر يسعى إلى توطيد أركان الدعوة الجديدة، ومع كل شعر يدعو إلى الفضيلة، ويحث على الأخلاق الحميدة، ويثبت المثل العليا في تفكير الناس وفي سلوكهم، تلك المثل التي جاء الإسلام ليكرسها في المجتمع الجديد، ويثبت عراها بين المسلمين، ومع كل شعر يحافظ على أعراض الناس، ولا يفتت اللحمة فيما بينهم، ولا يهدم أواصر المحبة والتسامح بين ظهرانيهم، ومع كل شعر يشيد بمناقب المسلمين، وينوه بأفعالهم الحميدة، فيثني على المجيد بما أجاد، وينبه المقصر على تقصيره ليتجاوز ما هو فيه.

ومن هنا يمكن القول:

إن القرآن الكريم مع كل شعر يتسم بالخير، ويسعى إلى الخير، بالمفهوم الواسع لكلمة الخير، وهو ضد الشعر الذي يتسم بالشر، ويسعى إلى الشر، بالمفهوم الواسع لكلمة الشر، وهذا يعني أن القرآن الكريم ليس ضد الشعر كوسيلة فنية من وسائل التعبير عن النفس والوجدان والعقل، وإنما هو ضد الطريقة التي

تُستخدم فيها هذه الوسيلة الفنية، وضد المنهج الذي اتبعه بعض الشعراء في أشعارهم، "وهو منهج الأهواء والانفعالات التي لا ضابط لها، ومنهج الأحلام المهومة التي تشغل أصحابها عن تحقيقها".[١]

وخلاصة القول: إن" تأويل هذه الآيات بحيث يُستفاد منها منع الشعر أو تحريمه أو استقباحه، إنما هو تأويل يفرط في الشطط، لأنه يفرط في الخروج على حدود التأويل وأصوله، وتدعم ما نذهب إليه السنة النبوية نفسها التي دعت إلى قول الشعر، وشجعت الشعراء، وكان لها قولها الشعري في حربها على المشركين، أو الذين يقاتلون الإسلام والمسلمين".[٢]

ولعل من المفيد أن نشير هنا إلى أن بعض النقاد القدماء قدموا تفسيرات مهمة وموضوعية لهذه الآيات، واجتهدوا في توضيح مفهومها والمقصود منها، كابن رشيق القيرواني مثلا الذي أشار إلى أولئك الذين لا يفهمون وجه الكلام، وبيّن أنهم قد غلطوا في فهم تلك الآيات، ليستنتجوا بعد ذلك أن القرآن وقف ضد الشعر والشعراء، وهذا "غلط وسوء تأويل، لأن المقصودين بهذا النص شعراء المشركين الذين تناولوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجاء، ومَسُّوهُ بالأذى، فأما مَن سواهم من المؤمنين فغير داخل في شيء من ذلك، ألا تسمع كيف استثناهم الله عز وجل، ونبّه عليهم، فقال:" إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وانتصروا من بعد ظُلموا" يريد شعراء النبي صلى الله عليه وسلم الذين ينتصرون له، ويجيبون المشركين عنه، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة". [٣]

---

(١) الإسلام والشعر. للدكتور سامي مكي العاني: ٤٢.

(٢) الأصول، نقلا عن: كلام البدايات: ١٨٥-١٨٦.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ٣١/١.

المبحث الثاني– النقد عند الرسول – صلى الله عليه وسلم–

ينسجم موقف الرسول – صلى الله عليه وسلم– من الشعر والشعراء مع موقف القرآن الكريم، ولا يخرج عنه، وهذا واضح في الأخبار الكثيرة التي أُثرت عنه، والتي تناول فيها الشعر والشعراء ناقدا أو معلقا أو معقبا أو موضحا أو مستمعا أو ما إلى ذلك، مما سنبينه ونأتي على ذكره في الصفحات الآتية، ولكننا سنقف قبل ذلك على حديث له لحقه شيء من سوء الفهم، واختلاف التأويل من قبل بعض الباحثين، مما أدى بهم إلى إطلاق أحكام نقدية تفيد بأنه –صلى الله عليه وسلم– قد وقف موقفا مناهضا للشعر والشعراء، ورافضا لما يأتون به من قول، وهذا يماثل مواقف بعض الباحثين والعلماء الذين قرؤوا الآيات من سورة الشعراء:" والشعراء يتبعه الغاوون....." إلى آخر هذه الآيات وهو قوله تعالى:" وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" والتي سبق أن وقفنا عليها في حديثنا عن موقف القرآن الكريم من الشعر والشعراء، ليصلوا إلى نتيجة تفيد بأن القرآن وقف ضد الشعر والشعراء عموما، وقد ناقشنا تلك الآيات، وبيّنا الموقف الحقيقي للقرآن الكريم من الشعر والشعراء، وهذا ما سنفعله هنا أيضا في تناولنا للحديث النبوي الشريف.

أما الحديث النبوي فهو قوله صلى الله عليه وسلم:

" لَأَنْ يمتلئَ جوفُ أحدِكُمْ قَيْحاً، خيرٌ له من أن يمتلئَ شعرا"[1]، وفي رواية أخرى للحديث:" لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحا أو دما، خير له من أن يمتلئ شعرا هُجِيْتُ به".[2]

وسنناقش الروايتين كلتيهما لنقف على حقيقة موقفه – صلى الله عليه وسلم– من الشعر والشعراء.

أما الرواية الثانية ففيها تحديد واضح لنمط مخصوص ومحدد من الشعر الذي ينهى عنه الرسول، وهو الشعر الذي تناول فيه الشعراء هجاءه وذمه والنيل من دعوته، ومن الطبيعي أن يرفض الرسول الكريم مثل هذا الشعر، وينهى الناس عن روايته لما يتضمنه من إساءةٍ لشخصه الكريم، ونيلٍ من المبادئ التي

([1]) سنن أبي داود: ٧٠٥، الحديث: ٥٠٠٩.

([2]) مسند أبي يعلى الموصلي: ٤٧/٤، الحديث: ٢٠٥٦.

دعا إليها وحض الناس على اتباعها، و هذا ما نجده في حديث عن ابن عائشة التيمي قال : قال رسول الله ص : "اللهم مَنْ هجاني فالْعَنْهُ مكانَ كلِّ هجاءٍ هَجَانِيَهُ لَعْنَةً".[1]

ومن هنا فإن النبي لم يقف ضد الشعر في عمومه، وفي أغراضه المختلفة، وإنما وقف ضد نمط شعري بعينه، وضد غرض شعري محدد، وهو الذي تضمن هجاءه ودعوته، وهذا واضح في هذه الرواية وضوحا تاما لا يحتمل أي شك في الفهم، أو لَبْسٍ في القراءة.

وأما الرواية الأولى للحديث الشريف، فهي الرواية التي قرأها بعض الباحثين قراءة تعوزها بعض الدقة، وتحتاج إلى مزيد من التدقيق والموضوعية، لأنها أدت بهم إلى إطلاق أحكام نقدية تفيد بأن الرسول الكريم قد وقف ضد الشعر والشعراء، ولم يكن ينظر إلى الحركة الشعرية عموما بعين الرضى والقبول والاستحسان، وهذا موقف لا نراه صحيحا، لأنه يجافي الحقائق التاريخية، ولا ينسجم مع موقفه – صلى الله عليه وسلم- الحقيقي والصحيح من الشعر والشعراء؛ هذا الموقف الذي تجسد من خلال كثير من الأخبار والأحاديث التي نقلت عنه، وفيها يتبين موقفه الحقيقي من الشعر والشعراء، مما سنأتي على ذكره وبيانه والتفصيل فيه لاحقا.

ولعل فهم هذه الرواية الثانية للحديث النبوي الشريف، يتطلب منا أن نستعين بشرط من شروط القراءة النقدية الصحيحة والموضوعية للنصوص، وهو الشرط الذي يرى أن قراءة نص من النصوص عند مبدع من المبدعين، يتطلب إذا أشكل علينا فهمه، أن نعود في بعض الأحيان إلى نصوص أخرى للمبدع نفسه، اعتمادا على منهج أصيل من مناهج القراءة والتأويل ولا سيما في قراءة النص القرآني، وهو التفسير بالمأثور، أي تفسير النص اعتمادا على نصوص أخرى، ولكننا ها هنا سنعتمد على نصوص أخرى للمبدع نفسه، من دون الرجوع إلى نصوص أخرى لغيره، فنصوص المبدع الواحد يفيد بعضها في فهم بعضها الآخر، وسنطبق هذا الشرط من شروط القراءة النقدية على هذه الرواية الأولى في قراءة الحديث من خلال عرضه على أحاديث وأخبار أخرى أُثرت عن النبي /ص/ وسنرى بعد أن نستعرض جملة من تلك الأحاديث والأخبار النبوية الشريفة التي تناول فيها الشعر والشعراء، كيف أن موقفه من الشعراء والشعراء كان موقفا انتقائيا، ميز فيه بين أنماط الشعر وأنواعه من جهة، وبين فئات الشعراء من

([1]) جمهرة أشعار العرب: ٣٤.

جهة أخرى، مثله في هذا مثل القرآن الكريم، ولم يكن موقفا عاما تناول فيه الشعر بأحكام مطلقة، تفيد بتحريمه أو برفضه أو بالنهي عنه نظما ورواية.

١– آراؤه في الشعر:

فقد كانت له /ص/ آراؤه في الشعر، فقد لخص لنا موقفه من الشعر عموما، وهو موقف ينسجم بالاعتدال والحكمة وبُعْدِ النظر بقوله:" إنما الشعرُ كلامٌ مُؤلَّفٌ، فما وافَقَ الحقَّ فيه فهو حَسَنٌ، وما لم يُوافِقِ الحقَّ فلا خيرَ فيه".(١)

وهو القائل:" إنَّ من البيان لَسِحْراً، وإنَّ من الشعرِ لَحُكْماً" وقيل:" لَحِكْمةً" وهو الذي قال عن قول لبيد:

" أَلَاْ كلُّ شيءٍ ما خَلا اللهَ باطلُ "

"إنها أصدقُ كلمةٍ تكلمَتْ بها العرب"، وفي رواية أخرى:" إنها أصدقُ كلمةٍ قالَها الشاعر".(٢)

٢– استماعه للشعر:

كما كان /ص/ مستمعا جيدا للشعر، ينصت إليه باهتمام، ويعلق تعليقات تدل على أنه لم يكن مستمعا عاديا، بل كان مستمعا مدققا في كل ما يُقالُ أمامه، أو يُنشدُ في حضرته، من ذلك ما رُوي من أن النابغة الجعدي وفد عليه /ص/ وأنشده قصيدة ذكر البغدادي في خزانته أنها تقع في مئتي بيت، فلما بلغ إلى قوله:

بلغْنا السّما مجداً وجوداً وسُؤْدَدَا		وإنّا لنرجو فوقَ ذلك مَظْهرا

قال رسول الله /ص/: إلى أين يا أبا ليلى، فقال: إلى الجنة، فقال /ص/ نعم إن شاء الله.

ثم قال النابغة:

ولا خيرَ في حلمٍ إذا لم تكنْ له		بوادِرُ تحمي صَفْوهُ أن يُكدَّرا

(١) العمدة: ١/٨٥.

(٢) الزهرة: ٢/٥٠١، وعجز البيت: وكلُّ نعيم لا محالةَ زائلُ.

ولا خـــيرَ في جهـــلٍ إذا لم يكـــنْ لـــه		حلـــيمٌ إذا مـــا أُوْرِدَ الأمـــرُ أصْـــدَرا

فقال رسول الله /ص/: لا يفضض الله فاك.

فالرسول /ص/ كان يستمع إلى الشعر بدقة تجعله يتابع كل معنى يُعرض أمامه، فإذا استحسن هذا المعنى أو ذاك أثنى على صاحبه، وإذا خشي أن يؤول المعنى بما لا ينسجم مع الدعوة الجديدة، استفهم من الشاعر عما يريده من قوله، ولهذا سأل الجعدي: "إلى أين يا أبا ليلى" لأنه خشي أن يكون في بيته بقية من آثار العصبية الجاهلية، والفخر المبالغ فيه، فأجابه الجعدي بتفسير ما قاله، وبتوجيهه توجيها إسلاميا محضا فقال: إلى الجنة.

ومن ذلك أيضا القصة المعروفة، واستماعه لكعب بن زهير في المسجد، عندما أنشده قصيدته المشهورة التي عرفت بالبُردة، وذلك لأنه /ص/ أعطاه بعد إنشاده القصيدة بردة اشتراها منه معاوية بعشرين ألف درهم، والتي مطلعها:

بانَـــتْ ســـعادُ فقلـــبي اليـــومَ مَتْبـــولُ		مُتَـــيَّمٌ إِثْرَهـــا لم يُفْـــدَ مَكْبـــولُ[1]

فعفا عنه الرسول بعد أن كان قد أهدر دمه، لإسرافه في إيذاء المسلمين بشعره، وإفراطه في الوقوف في وجه الدعوة الإسلامية الجديدة.

ومن ذلك أيضا طلبُهُ الاستماعَ لبعض شعر أمية بن أبي الصلت، فقد رُوي عن عمرو بن الشَّريد عن أبيه أنه قال:" رَدَفْتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فقال: هل معكَ من شعر أميةَ بنِ أبي الصَّلْتِ شيءٌ؟ قلتُ: نعم، قال: هِيهِ، فأنشدتُه بيتاً، فقال: هيه، ثم أنشدته بيتا، فقال: هيه، حتى أنشدتُهُ مئة بيت"[2].فهو في هذا الحديث يطلب الاستزادة من شعر أمية بن أبي الصلت، وهو واحد من مخضرمي الجاهلية والإسلام، وأحد الشعراء المتألهين في الجاهلية، وهو الذي قال عنه – صلى الله عليه وسلم– :" آمَنَ شعرُهُ وكفَرَ قلبُه".

([1]) انظر: العقد الفريد: ٥/٢٨٨.

([2]) صحيح مسلم: ١٠٠٠، الحديث: ٥٨٨٥.

ومن ذلك أيضا سماعه للخنساء، فقد رُوي أنها :"قَدِمَتْ على رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وكان يستَنْشِدُها شعرَها ويُعْجِبُهُ، ويقولُ: هيهِ يا خُناسُ، ويومئ بيده".[1]

والأحاديث التي تشير إلى استماعه للشعر والشعراء كثيرة، ولا شك في أن الاستماع للشعر يعني من جملة ما يعني: الاهتمام بالحركة الشعرية عموما، وتشجيع الشعراء على قول الشعر ونظمه، والاقتناع بأثر الشعر في حياة القوم، والإقرار بضرورة وجود فن الشعر سلاحا من الأسلحة التي اعتمد عليها النبي في حربه مع المشركين.

٣– تشجيعه الشعراء وحضُّهم على قول الشعر:

كما كان – صلى الله عليه وسلم– يشجع الشعراء، ويستحثُّهم على القول، ويَحُضُّهم على الرد على الشعراء المشركين، الذين استلُّوا ألسنتهم لهجاء الرسول، والوقوف في وجه الدعوة الجديدة، فمن ذلك ما ورد في الأغاني:

" حدثنا عوفُ بنُ محمد بنِ سيرين قال: كان يهجو رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ثلاثةُ رَهْطٍ من قريش: عبد الله بن الزبعرى، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، فقال قائل لعلي بن أبي طالب – رضي الله عنه–: اهجُ عنا القومَ الذين قد هجونا، فقال علي: إنْ أذِنَ لي رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فعلتُ، فقال رجل: يا رسول الله، ائذنْ لعلي كي يهجو عنا هؤلاء القوم الذين قد هجونا، قال: ليس هناك، أو ليس عنده ذلك، ثم قال للأنصار: ما يمنعُ القومَ الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروهُ بألسنتهم؟ فقال حسان بن ثابت: أنا لها، وأخذ بطرَف لسانه، وقال: والله ما يسرُّني به مِقوَلٌ بين بصرى وصنعاء، فقال: كيف تهجوهم وأنا منهم؟ فقال: إني أسُلُّكَ منهم، كما تُسَلُّ الشعرةُ من العجين.

قال: فكان يهجوهم ثلاثة من الأنصار: حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، فكان حسان وكعب يعارضانهم بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر، ويعيّرانهم بالمثالب، وكان عبد الله بن رواحة يعيّرهم بالكفر.

([1]) الوافي بالوفيات: ٣٨٨/١٠.

قال: فكان في ذلك الزمان أشدَّ القولِ عليهم قولُ حسان وكعب، وأهونَ القول عليهم قولُ ابن رواحة، فلما أسلموا وفقِهوا الإسلام، كان أشدَّ القول عليهم قولُ بن رواحة".[1]

ولعلنا نستطيع أن ننتهي إلى جملة من الاستنتاجات من خلال قراءتنا لهذا الخبر النقدي المهم، منها:

٣-١- أثر الشعر الكبير في حياة القوم، فقد كان سلاحا فعالا في أيدي الفريقين المتخاصمين، المسلمين والمشركين، فقد اعتمد كل فريق على هذا السلاح الإعلامي المهم والمؤثر، وكنا نلحظ دائما كيف أن معارك السيف كانت تترافق مع معارك اللسان، فبعد كل معركة كانت تنشب بين الفريقين بالسيف، كانت تنشب معركة أخرى باللسان يقودها شعراء من كلا الفريقين، ومن هنا نفهم السبب الذي دفع الرسول – صلى الله عليه وسلم- للبحث عمن يرد عنه وعن المسلمين ألسنة الشعراء المشركين، وهجاءهم المرّ، من أمثال: عبد الله بن الزبعرى، وأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص، وغيرهم من الشعراء الذين كانوا ما يزالون في شركهم، ولم يدخلوا في الإسلام بعد.

٣-٢- بعض المسلمين يطلب من علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- أن يرد عن المسلمين ألسنة الشعراء المشركين وهجاءهم، فيشترط لقبوله ذلك الإذن من النبي الكريم، الذي لم يأذن له بذلك، وسبب هذا في رأينا يرجع إلى أمرين اثنين:

الأول: هو أن الرسول الكريم لا يريد أن يُدخل عليا في سجال كلامي مع الكفار، ولا يريد أن يُقحمه في المعارك الشعرية التي كانت تدور رحاها بين الفريقين، لا لعجزه الشعري، أو نقص في قدرته على القول، كما يوحي ظاهر الخبر، بل لأنه يرى أن مهمته في الدعوة الإسلامية أسمى وأجلُّ وأرفعُ، من أن يتحول إلى واحد من عرض الشعراء، يهجو ويُهجى، فهو لا يريده أن ينشغل بقضايا وأمور يمكن لغيره أن يقوم بها، في الوقت الذي لا يقدر غيره على أن يقوم بما يمكن أن يقوم به هو، ويحققه للإسلام والمسلمين، ولذلك فإن الرسول الكريم لا يريد له هذا الموقع، ولا يحبذ له القيام بهذا العمل، لأن ثمة مواقع أهم من هذا الموقع بكثير تنتظره ليقوم بها خدمة للدعوة الإسلامية الناشئة.

والأمر الثاني: هو أنه يريد أن يُشعر الأنصار بأهميتهم في الدفاع عن الدعوة، وبدورهم المؤثر في المشاركة في حفظ الرسالة وصونها والذود عنها، فقد أصبحوا جزءا أصيلا من الدعوة الإسلامية ومن واجبهم

([1]) الأغاني: ٣٩١/١.

الدفاع عنها، والذَّبِّ عن النبي /ص/ في وجه خصومه من المشركين، وسيسرهم أن يشرفهم النبي بهذه المهمة النبيلة والعظيمة، لأن مشاركتهم في ذلك ستجعلهم أشد ارتباطا بالدعوة الجديدة "وأدعى للدفاع عنها، وهو مظهر من مظاهر الالتزام، فغرض الرسول واضح في شد الأنصار إلى الحرب الإعلامية، وربطهم بالدعوة، وتكريم شاعرهم بالدفاع عنها ليكون شاعر الإسلام وشاعر الدعوة"[١].

٣-٣- يحدد الخبر ثلاثة من أبرز شعراء الأنصار استجابوا لدعوة النبي وهبُّوا للدفاع عنه وعن دعوته، وهم الشعراء الذين عُرفوا بشعراء الدعوة الإسلامية، وهم: عبدُ الله بنُ رواحة، وكعبُ بنُ مالك، وحسانُ بنُ ثابت، ولكن طريقة هؤلاء الشعراء الثلاثة في هجاء المشركين لم تكن واحدة، فقد كان كعب وحسان، يردّان عليهم بمثل معانيهم التي كانوا يستخدمونها في هجائهم، والتي تمثّلت بالهجاء بالوقائع والأيام والمآثر والتعيير بالمثالب، ونحو ذلك مما يندرج تحت المعاني الدنيوية، بينما كان يذهب عبد الله بن رواحة في هجائه مذهبا آخر، وينحو نحوا مختلفا، فيعيرهم بالكفر والخروج على الشريعة وتعاليمها وأداء الفروض والطاعات ونحو ذلك من المعاني الدينية، ولذلك فقد كان هجاء كعب وحسان قاسيا عليهم قبل إيمانهم، وشديدا عليهم قبل إسلامهم، بينما كان هجاء عبد الله بن رواحة بردا وسلاما عليهم، لأنه لا يضير الكافر أن تعيِّرَهُ بكفره، ولا يسوء المشرك أن تذمه بشِرْكِهِ، ولكن الأمر اختلف بعد أن دخل هؤلاء المشركون في الإسلام، وانضووا تحت لوائه، فوجدوا أن هجاء ابن رواحة أشد على قلوبهم، وأقسى على أفئدتهم، وأكثر وجعا وإيلاما من هجاء الشاعرين الآخريْن: كعب وحسان.

٤- للرسول شعراؤه:

وكان للرسول شعراؤه الذين يدافعون عنه، وينافحون عن الإسلام، من أشهرهم الشعراء الذين عرفوا بشعراء الدعوة الإسلامية – كما أسلفت – وهم: عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، وحسان بن ثابت الذي اشتُهر بأنه شاعر الرسول، وهو القائل:" أَمَرْتُ عبدَ الله بنَ رواحة فقالَ وأَحْسَنَ، وأمرتُ كعبَ بنَ مالكٍ فقالَ وأَحْسَنَ، وأمرتُ حسانَ بنَ ثابتٍ فشفَى واشتَفى"[٢]وفي هذا ما يفيد رجحان كفة حسان على الشاعرين الآخرين.

---

(١) دراسات في النقد العربي القديم -الجزء الأول-: ١٥٨.

(٢) الأغاني: ١٤٣/٥.

ومما يعزّز تفوق حسان وتميزه بين الشعراء الثلاثة، ما ورد عن السيدة عائشة من أن رسول الله قال لشعراء الدعوة:" اهْجُوا قريشاً فإنه أشدُّ عليها من رشْقٍ بالنَّبْل، فأرسَلَ إلى ابنِ رواحةَ فقال: اهجُهُمْ، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسلَ إلى كعب بن مالك، ثم أرسلَ إلى حسانَ بنِ ثابتٍ، فلما دخلَ عليه قال حسان: قد آنَ لكم أن تُرسلوا إلى هذا الأسدِ الضّاربِ بذَنَبِهِ، ثم أَدْلَعَ لسانَهُ، فجعَلَ يحرِّكُهُ، فقال: والذي بعثَكَ بالحقِّ لَأَفْرِيَنَّهُمْ بلساني فَرْيَ الأديم، فقال رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم-: لاتَعْجَلْ فإن أبا بكرٍ أعْلَمُ قريشٍ بأنسابها، وإنّ لي فيهم نَسَباً، حتى يُلخِّصَ لك نَسَبي، فأتاهُ حسان، ثم رجع فقال: يا رسولَ الله قد لَخَّصَ لي نَسَبَكَ، والذي بعثَك بالحقِّ، لَأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسلُّ الشعرةُ من العجين، قالت عائشة: فسَمِعْتُ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم- يقول لحسانَ: إنّ روحَ القُدُسِ لا يزالُ يُؤيِّدُكَ ما نافَحْتَ عن الله ورسولِهِ، وقالت: سمعتُ رسول الله – صلى الله عليه وسلم- هجاهُمْ حسانُ فشفى واشتفى".[1]

وفي هذا الحديث ما يشير إلى تفوق حسان على شاعري الدعوة الآخرين: عبد الله بن رواحة، وكعب بن مالك، في هجائه المشركين، ودفاعه عن الرسول الكريم ودعوته بشعره الذي آلم المشركين من جهة، وفيه ما يؤكد على استعانة الرسول بالشعر والشعراء في حربه مع المشركين من جهة أخرى.

ولو رحنا نستقصي كلامه /ص/ لطال بنا المقام، وتشعب القول، ولكننا نكتفي بهذا القليل، لندل به على الكثير، ولكي نصل إلى القراءة الصحيحة والموضوعية للحديث النبوي الذي سقناه في مبتدأ كلامنا، ونفهمه الفهم الصحيح، من خلال العودة إلى أحاديث أخرى للرسول /ص/ تفيدنا في فهم هذا الحديث، إذ لا يمكن للرسول /ص/ أن يكون متناقضا مع نفسه ومع الآخرين، فيقول كلاما في مناسبة، ثم ينقضه في مناسبة أخرى، أو يتحدث بأشياء هنا، ثم يتحدث بما يناقضها أو يعاكسها هناك، ومن هنا ينبغي أن نقرأ هذا الحديث ضمن السياقات الأخرى والأحاديث المختلفة التي أثرت عنه/ص/، والتي أتينا على بعضها، وننتهي إلى أنه لا يمكن أن يقف موقفا سلبيا من الشعر، وإنما كان موقفه انتقائيا، فهو يميز بين نمطين شعريين، ومن ثم بين نمطين من الشعراء، فهنالك شعر الغواية، وشعر الهداية، وهنالك الشعراء المؤمنون، والشعراء المشركون، ومن هنا فهو ضد الشعر الذي فيه هدم لما تدعو إليه الشريعة السمحاء، أو ذلك الشعر الذي يتضمن هجاء فاحشا يثير العداوة والبغضاء بين الناس، أو غزلا ماجنا يهتك أعراض

([1]) صحيح مسلم: ١٠٩٥، الحديث: ٦٣٩٥.

الناس، أو كل ما فيه خروج على الشريعة أو الأخلاق، وفي مقابل هذا فإنه مع الشعر الذي يلتزم بمبادئ الدين الحنيف، وينافح عن الإسلام والمسلمين، ويلتزم بأصول الأخلاق الحميدة، وكل شعر من شأنه أن يسهم إسهاما حقيقيا وجادا في بناء المجتمع الإسلامي الناشئ.

ولعل من نافلة القول هنا وختامه، أن أشير إلى أن بعض النقاد قد فهموا هذا الحديث فهما ضيقا، ولم يتسعوا في فهمه وتأويله كما ينبغي، وبما يعكس موقفه /ص/ من الشعر والشعراء، هذا الموقف الذي جلينا بعضا من جوانبه، وألمحنا إلى بعض من تفاصيله، كابن رشيق القيرواني الذي رأى أن المراد بالحديث "هو مَنْ غلب الشعر على قلبه، وملك نفسه، حتى شغله عن دينه، وإقامة فروضه، ومنعه من ذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن، والشعر وغيره مما جرى هذا المجرى من شطرنج وغيره سواء".[1] وربما يكون ما قصده النبي /ص/ بالشعر هذا الذي ذهب إليه ابن رشيق، فأنا لا أنفي هذا الرأي ولا أرفضه، إذ إننا قد نجد بعضا من الناس ممن يهتمون بالشعر اهتماما مبالغا فيه، وينشغلون به انشغالا كبيرا، بحيث يطغى على سائر اهتماماتهم، وهم بذلك يهملون التزاماتهم الحياتية الأخرى على اختلاف أنواعها المادية منها والمعنوية، وهذا يشبه إلى حد بعيد ما يحدث في زمننا من انشغال بعض الشباب في زماننا بوسائل التواصل الاجتماعي انشغالا يصل بهم إلى درجة الإدمان، الأمر الذي يعود بالضرر الواضح عليهم وعلى مجتمعاتهم، فإذا كان يحدث شيء مماثل في الزمن الماضي فينشغل بعض الناس بالشعر عما سواه، حتى إنه ليملك منهم العقول والأرواح فهذا فيه من الضرر ما فيه، وفيه من الأذى الشيء الكثير للأفراد والمجتمعات، ولكنني بالمقابل أرى أن المقصود من الحديث، والمراد منه، ربما يكون أوسع من هذا وأبعد وأشمل، وهو ما ذكرتُه وفصلتُ القول فيه، فالشعر وسيلة فنية، وأداة من أدوات القول، ويمكن توجيهها من قبل صاحبها في أي باب يشاء، فإن شاء ففي باب الخير، وإن شاء ففي باب الشر، وهذا حال كل وسيلة فنية، وكل أداة من أدوات القول، إذ هي سلاح ذو حدين، وتختلف باختلاف مستخدمها، وما يريده منها، وما يبتغي أن يوصله من خلالها، وهذا يعني أن المشكلة ليست في الوسيلة الفنية نفسها، وإنما في الطريقة التي نستخدم فيها هذه الوسيلة، وفي الهدف الذي نسعى إلى تحقيقه من وراء تلك الوسيلة، والغاية التي نتوخاها منها.

([1]) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ٣٢/١.

المبحث الثالث– النقد عند الخلفاء الراشدين

أسهم الخلفاء الراشدون بالحركة النقدية في عصر صدر الإسلام من خلال الأخبار النقدية التي أُثرت عنهم، وكانت إسهاماتهم متفاوتة بين خليفة وآخر، تبعا لمدى اهتمامهم بالشعر والشعراء، ففي الوقت الذي نجد فيه اهتماما كبيرا بالحركة الشعرية من قبل الخليفتين الراشديين عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب –رضي الله عنهما– نجد اهتماما أقل نسبيا من لدن الخليفتين الراشديين أبي بكر الصديق، وعثمان بن عفان –رضي الله عنهما– ولهذا فإننا سنقتصر في حديثنا عن النقد عند الخلفاء الراشدين على الخليفتين عمر، وعلي، نظرا لاهتمامهما الواضح بالشعر والشعراء، وكثرة الأخبار التي نُقلت عنهما إذا ما قورنت بالأخبار المنقولة عن الخليفتين أبي بكر، وعثمان.

أولا– النقد عند الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب– رضي الله عنه–

يظهر اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه– بالشعر والشعراء من خلال جملة من الأخبار والأقوال التي نقلت عنه، فمن ذلك قوله موضحا مفهومه للشعر:" الشعر جزل من كلام العرب، يُسكَّنُ به الغيظ، وتُطفأ به النائرة، ويُتبلَّغُ به القوم"[1]وقال أيضا:" نعم الهدية للرجل الشريف، الأبيات يقدمها بين يدي الحاجة، يستعطف بها الكريم، ويستنزل بها اللئيم".[2]

([1]) فضل العرب والتنبيه على علومها: ١٧٦.

([2]) نفسه

ويروى أنه كتب إلى أبي موسى الأشعري قائلا:" مُرْ مَنْ قِبَلَكَ بتعلم الشعر، فإنه يدلُّ على معالي الأخلاق، وصوابِ الرأي، ومعرفةِ الأنساب".[1]

وله أخبار مع بعض الشعراء يظهر فيها اهتمامه بالحركة الشعرية وبالشعراء عموما، كما تتجلى فيها بعض مواقفه النقدية، وسنقف فيما يأتي على خبرين نقديين اثنين له، محاولين قراءتهما قراءة نقدية، وتقديم بعض الملاحظات النقدية عليهما.

١– الخبر النقدي الأول: (خبره مع عبدالله بن عباس – رضي الله عنه–)

سألَ عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– عبد الله بن عباس مرة قائلا: هل تروي لشاعر الشعراء؟ قال ابن عباس، فقلت: ومن هو؟ قال: الذي يقول:

ولــو أن حمــداً يُخلِــدُ النــاسَ أُخلِــدوا	ولكــنّ حمْــدَ النــاسِ لــيس بِمُخْلِــدِ

قلت: ذاك زهير، قال: فذاك شاعر الشعراء؟ قلت: وبم كان شاعر الشعراء؟ قال: لأنه كان لا يعاظل في الكلام، وكان يتجنب وحشي الشعر، ولم يمدح أحدا إلا بما فيه".[2]

قراءة الخبر:

١– اهتمام الخليفة بالشعر والشعراء:

يتضح في الخبر اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب –رضي الله عنه– بالشعر والشعراء، والحركة الشعرية عموما، وهذا ما ظهر واضحا من خلال سؤاله ابن عباس –رضي الله عنه– عن شاعر الشعراء، وهل يروي بعضا من شعره.

٢– الناس لم يتفقوا على أي الشعراء أشعر:

سأل الخليفة ابنَ عباس عن شاعر الشعراء، فرد ابن عباس بقوله: ومن هو؟ وهذا يدل على أن الناس لم يتفقوا على أي الشعراء أشعر، ولم ينتهوا إلى تحديد الشاعر الذي يحتل هذه المنزلة، ويتبوأ هذه المكانة، حتى يعرفه الناس جميعا، فالناس في هذا الأمر مختلفون فيما بينهم، ومنقسمون في اتجاهات كثيرة ومتباينة، وكل يفضل ما ينسجم مع هواه وذوقه وميله وعقله ونحو ذلك، وهذا ما كنا قد أشرنا إليه سابقا، وما أكده كثير من العلماء القدماء، ومن بينهم خلف الأحمر الراوية والشاعر، عندما قيل له:" من

([1]) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ٨٨/١.

([2]) الأغاني: ٢٩١.٢٨٨/١٠، وطبقات فحول الشعراء: ٦٣/١، والشعر والشعراء: ١٣٧/١–١٣٨.

أشعر الناس؟ فقال: ما ننتهي إلى واحد يُجْتَمَعُ عليه، كما لا يُجتمعُ على أشجع الناس، وأخطب الناس، وأجمل الناس ، قلت، فأيهم أعجب إليكَ يا أبا محرز؟ قال: الأعشى، قال: أظنه قال: كان أجمعهم". [1]

وهذا يدل على أن عبارة (أشعر الناس) ترتبط بمستويين اثنين: المستوى الأول هو المستوى العام، وهو الذي لا نجد فيه اتفاقا على أي الشعراء أشعر، لاختلاف مذاهب الناس بالعلم وتباينهم في الذوق، واختلافهم في الرؤية ونحو ذلك، والمستوى الثاني وهو المستوى الشخصي أو الذاتي أو الفردي، وهذا له علاقة بعلم الشخص وذوقه ورؤيته الذاتية الخاصة وما إلى ذلك، وهذا ما ظهر واضحا في كلام خلف الأحمر، الذي أشار إلى أنه على المستوى العام لا يمكن تحديد من هو الشاعر الأشعر لأن الناس لم يجتمعوا على ذلك، وأما على المستوى الشخصي المتعلق به شخصيا فإنه يفضل الأعشى على غيره من الشعراء، وهذا هو رأيه الخاص الذي قد يتفق معه فيه بعض الناس، ويختلف معه فيه كثير من الناس. [2]

٣- زهير بن أبي سلمى شاعر مشهور:

لم يذكر الخليفة اسم شاعر الشعراء، بل اكتفى بذكر بيت من أبياته وهو قوله:

ولو أن حمدا يخلد.... (البيت)

وهذا يعني شهرة البيت، وذيوعه بين الناس، ومن ثم شهرة صاحبه ومعرفة الناس به من جهة، وثقة الخليفة بعلم ابن عباس، وسعة اطلاعه، وعمق معرفته بالموروث الشعري من جهة أخرى، ومن هنا فهو سيعرف صاحب هذا البيت من دون أن يسميه له الخليفة، وهذا ما كان فعلا، إذ قال: ذاك زهير.

٤- شاعر الشعراء:

استخدم الخليفة عبارة (شاعر الشعراء) بدلا من العبارة الأكثر استخداما، والأكثر ذيوعا في هذا السياق، وهي (أشعر الشعراء) التي كانت تتردد على ألسنة الناس عندما كانوا يريدون المفاضلة بين الشعراء، ولعل المعنى متقارب بين العبارتين، ولا يكاد يختلف كثيرا، فعبارة (شاعر الشعراء) تفيد تفضيل هذا الشاعر أو ذاك على غيره، وتدل على تميزه من الآخرين، وتفوقه على من سواه، كما لو أننا قلنا: هذا خطيب الخطباء، وذاك بليغ البلغاء ونحو ذلك.

٥- الاهتمام بوظيفة الشعر الأخلاقية:

إن تدقيق النظر في البيت الذي أورده الخليفة مثالا من شعر شاعر الشعراء زهير بن أبي سلمى، يدل على أن الخليفة يميل في هذا الخبر إلى تفضيل الشعر الذي يتضمن حكمة أو معنى أخلاقيا أو ما إلى ذلك، فبيت زهير يشير إلى أن خلود الناس، لا يكون بكثرة حمد الناس وثنائهم عليهم، فهذا لن

([1]) طبقات فحول الشعراء:١/٦٥-٦٦.

([2]) انظر للاستزادة حول مصطلح (أشعر الشعراء) والتفصيل فيه: الموازنة في النقد العربي حتى القرن الخامس الهجري: ٧٨ وما بعدها.

يؤمن لهم الخلود، ولن يحقق لهم الحياة السرمدية، والمقصود بالخلود في البيت هو الخلود بمفهومه المادي والحسي، وليس بمفهومه المعنوي، وذلك لأن الخلود المادي هو الأمر المستحيل، وهو الشيء الذي لن يتحقق لأحد من الناس، مهما علا شأنه، ومهما ارتقت مكانته، في حين أن الخلود بمفهومه المعنوي قد يتحقق لكثير من الناس، فيستمر ذكرهم زمنا طويلا، ويتداول الناس الأحاديث عنهم وعن مناقبهم ومحامدهم، وعن آثارهم وأعمالهم التي تخلدهم عبر الزمن.

ويمكن أن نشير في هذا السياق إلى أن الخلفاء الراشدين، والصحابة وعلماء الدين ومن إليهم، كانوا يميلون عموما إلى تفضيل المعاني الأخلاقية في الشعر، وما يتضمنه من حديث عن المثل العليا، ومكارم الأخلاق، وينسجم مع ما تدعو إليه الشريعة السمحاء، ويحض عليه الدين الجديد، ويسعى إلى توطيده وتعزيزه في المجتمع، مركزين بذلك على الوظيفة الأخلاقية للشعر، انسجاما مع موقعهم الديني والاجتماعي في المجتمع، ولكن هذا لا يعني أنهم كانوا لا يلتفتون إلى الوظيفة الفنية في الشعر، ولا تستثيرهم عناصر الجمال، ومواطن الفن في الشعر، فقد كان يحدث هذا ولكنه قليل نسبيا، ولم يكن يصل إلى مستوى عنايتهم بالجانب الأخلاقي في الشعر، فمن ذلك مثلا إعجاب الخليفة عمر بن الخطاب نفسه في خبر آخر بجملة من الأبيات للنابغة الذبياني، منها البيتان اللذان يقول فيهما:

فإنكَ كالليل الذي هو مُدركي	وإنْ خِلْتُ أنّ المنْتأى عنكَ واسعُ
خطاطيفُ حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ	تشُدُّ بها أيْدٍ إليكَ نوازعُ

فهذان البيتان لا يتضمنان معنى أخلاقيا، أو يتحدثان عن قيمة من القيم، أو فضيلة من الفضائل، بل إن فيهما صورة جميلة تتحدث عن خوف النابغة الذبياني من النعمان بن المنذر، ففي البيت الأول يبين كيف أنه لا يستطيع الهرب من النعمان إلى أي مكان، فهو كالليل الذي يصل إلى كل ركن من أركان المعمورة، ويغطي كل جزء فيها، وهذا يجعل أمر التواري عن الأنظار، أو الاختفاء بعيدا عن عيون النعمان أمرا عسيرا بل قد يكون مستحيلا، وفي البيت الثاني يصور الشاعر نفسه وكيف أنه ملقى في بئر عميقة، وهو معلق بخطاطيف عقف مشدودة بحبال قوية ومتماسكة، ملتمسا العون، وطالبا المساعدة من النعمان لإنقاذه من محنته التي هو فيها.

٦- الخليفة يبين أسباب تقديم زهير على الشعراء:

يدفع حب المعرفة، والرغبة في زيادة الاطلاع، عبدَالله بن عباس إلى سؤال الخليفة عن السبب الذي من أجله صار زهير بن أبي سلمى شاعر الشعراء من وجهة نظره، فيجيب الخليفة عن ذلك محددا ثلاثة أسباب بارزة في شعر زهير هي التي جعلته يصل إلى هذه المرتبة، ويحتل هذه المكانة عنده، وهذه الأسباب هي:

٦-١- كان لا يعاظل في الكلام:

أول الأسباب التي ذكرها الخليفة عمر ليدلل من خلالها على تفوق زهير على غيره من الشعراء هي عدم المعاظلة في الكلام، وانسجاما مع طبيعة النقد في عصر صدر الإسلام الذي لم يكن يعنى بتعليل الأحكام النقدية أو شرحها وبيان المقصود، فإن الخليفة لم يبين لنا ما الذي يعنيه بالمعاظلة، وكذلك فإن ابن عباس قد اكتفى بسماع أسباب تقديم الخليفة لزهير على الشعراء، من دون أن يستفسر منه عن أيٍّ من تلك الأسباب، ولعل هذا يعني من جملة ما يعني أنه موافق على ما ذهب إليه الخليفة من آراء، ومهما يكن من أمر فإن مفهوم المعاظلة مصطلحا لم يكن معروفا في زمن الخليفة، الذي استعمل هذه الكلمة غالبا اعتمادا على معناها اللغوي، ليعبر من خلالها عن معنى في ذهنه وجد أن شعر زهير يتصف به، وقد حاول النقاد فيما بعد أن يوضحوا مفهوم المعاظلة الذي تحول إلى مصطلح نقدي أخذ النقاد يطلقونه ليصفوا بها شعر هذا الشاعر أو ذاك، ومع أن المصطلح ينبغي أن يفيد الدقة والتحديد والثبوت، إلا أننا لا نجد تحديدا واضحا ودقيقا لهذا المصطلح، ولا نقف على تعريف جامع مانع له عند النقاد.

فمن النقاد الذين تحدثوا عن مصطلح (المعاظلة) قدامة بن جعفر(٣٣٧هـ) في كتابه (نقد الشعر) فقد ذكر أنه سأل أحمد بن يحيى عن المعاظلة فقال:" مداخلة الشيء في الشيء، يقال: تعاظلت الجرادتان، وعاظل الرجل المرأة، إذا ركب أحدهما الآخر"[1]ثم علق على هذا الكلام بقوله:" وإذا كان الأمر كذلك فمن المحال أن تنكر مداخلة الكلام في ما يشبهه من وجه، أو في ما كان من جنسه، وبقي النكير إنما هو في أن يدخل بعضه في ما ليس من جنسه، وما هو غير لائق به، وما أعرف ذلك إلا فاحش الاستعارة".[2]وأرد من أمثلتها قول أوس بن حجر:

وذاتُ هِـــــدْمٍ عــــارٍ نواشـــــرُها	تُصْـــمِتُ بالمـــاء توْلَبـــاً جـــدعا[3]

فسمى الصبي تولبا، وهو ولد الحمار.....وما جرى هذا المجرى من الاستعارة قبيح لا عذر فيه".[4]

فقدامة يرى أن المعاظلة هي الاستعارة الفاحشة، أي التي لا يكون فيها تشاكل أو تناسب بين المشبه والمشبه به، معتمدا في هذا الذي يراه على فهمه لكلام أحمد بن يحيي، إذ فهم أن المعاظلة تعني تأليف الكلام بحيث لا يشبه بعضه بعضا، ولا يناسب بعضه بعضه الآخر، فيبدو متنافرا، وهذا هو المنكر والسيء من التأليف، والذي رأى أن هذا يكون بما سماه (فاحش الاستعارة)، وعكس هذا النمط من التأليف، هو ذلك الذي يجمع فيه صاحبه بين الكلام المتشابه واللفظ المتشاكل، وهو التأليف الجيد والحسن.

(1) نقد الشعر:١٧٤.

(2) نفسه.

(3) ذات هدم: أي خلق بالية، عار نواشرها: أذرعها عارية، التولب: ولد الحمار، جدعا: سيء الغذاء.

(4) نقد الشعر: ١٧٥.

وقد لا نجد ارتباطا بين ما أسماه قدامة (فاحش الاستعارة) وبين تعليقه على كلام أحمد بن يحيى، الذي رأى أنه يعني به ما يمكن أن نسميه بسوء التأليف، إذ لا توجد علاقة مباشرة وواضحة بين فحش الاستعارة وسوء التأليف، فالأول وهو سوء التأليف يرتبط بلغة الشاعر وأسلوبه، والثاني وهو فحش الاستعارة يتصل ببناء الصورة الفنية.

وأما الآمدي (٣٧٠هـ) فقد نقل عمن أسماهم أهل العلم تفسيرهم لمعنى المعاظلة بأنها "مداخلة الكلام بعضه في بعض، وركوبُ بعضه لبعض، من قولك: تعاظل الجراد، وتعاظلت الكلاب ونحوهما".[١]ثم ذكر أن من المعاظلة "شدة تعليق الشاعر ألفاظَ البيت بعضَها ببعض، وأن يداخل لفظة من أجل لفظة تشبهها أو تجانسها، وإن اختل المعنى بعض الاختلال".[٢]وأورد عليها أمثلة من شعر أبي تمام، منها قوله:

خــانَ الصــفاءَ أخٌ خــانَ الزمــانُ أخــاً	عنــهُ فلــم يَتَخَــوَّنْ جِسْــمَهُ الكَمَــدُ

وعلق على هذا البيت بقوله:

" فانظر إلى أكثر ألفاظ هذا البيت، وهي سبع كلمات آخرها قوله "عنه" ما أشدَّ تشبُّثَ بعضِها ببعض، وما أقبح ما اعتمده من إدخال ألفاظ في البيت من أجل ما يشبهها، وهو "خان"، و"خان"، و"يتخون"، وقوله "أخ" و"أخا"، فإذا تأملت المعنى –مع ما أفسده من اللفظ– لم تجد له حلاوة، ولا فيه كبير فائدة، لأنه يريد: خان الصفاءَ أخٌ، خان الزمانُ أخا من أجله إذا لم يتخون جسمَه الكمد"[٣].

فهو – أي الآمدي– يرى أن المعاظلة تُعنى بالألفاظ المتجانسة، أو المتماثلة، أو التي تتصل فيما بينها بنسب، حتى ولو كان ذلك على حساب المعنى، ولم تؤد تلك الألفاظ المعنى أداء دقيقا، ولم تعبر عنه تعبيرا سليما، وهذا يعني فيما يعنيه أن الاهتمام في المعاظلة يكون باللفظ لا بالمعنى، أو بمعنى آخر فإن المعاظلة هي اهتمام باللفظ على حساب المعنى.

ولعلنا نرى أن الآمدي لم يشرح لنا معنى البيت الذي ساقه مثالا عن المعاظلة شرحا وافيا، فقد أعاد ألفاظ البيت بتغيير طفيف عليها، بحيث أن القارئ قد لا يتبين معنى البيت، ولا يدرك مفهوم المعاظلة فيه على الوجه الذي ذكره الآمدي، مع أن معنى البيت هو " من مات له أخ فلم يهلك لموته فقد خان المودة والصفاء"[٤]، وهذا المعنى قد لا نستبينه من شرح الآمدي، ولا نجده فيه.

---

(١) الموازنة بين أبي تمام والبحتري: ٢٥٩. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

(٢) الموازنة بين أبي تمام والبحتري: ٢٩٥.

(٣) نفسه: ٢٥٩-٢٦٠.

(٤) النظام في شرح شعر المتنبي وأبي تمام: ٢٠.

ومن هنا نجد أن فهم الآمدي للمعاظلة، يختلف عن فهم قدامة لها اختلافا كبيرا، وليس هذا فحسب وإنما نجد أن الآمدي يخطئ قدامة في فهمه للمعاظلة، ويرى أن الأمثلة التي ساقها عليها غير صحيحة، وأنه غلط فيها "غلطا قبيحا".[1]

وقد ذهب الصفدي في فهمه للمعاظلة إلى قريب مما ذهب إليه الآمدي ، فقد أورد بيت أبي تمام الذي يقول فيه:

وإن الغـــنى لي لـــو لحَظْـــتَ مطـــالبي	مـــن الشـــعر إلا في مـــديحِكَ أَطْـــوَعُ

ثم قال معلقا:" وأنا لا أعيب البيت من حيث معناه فإنه في غاية الحسن، وإنما أعيبه من حيث تراكيب ألفاظه، فإنها بين تقديم وتأخير ضيعا بهجة المعنى وأذهبا طلاوته، ألا ترى أنه يحتاج إلى تقدير وهو: إن الغنى أطوع لي من الشعر إلا في مدائحك إن لحظت مطالبي، فالمعنى في غاية الحسن من البلاغة، والألفاظ ما كأنها عُقَد الميزان، أو التخليط الذي يكون في منامات الباذنجان".[2]

ونجد له تعليقا آخر حول هذا البيت في كتابه "الغيث المسجم" يصرح فيه بمصطلح "المعاظلة" فيقول:" وأنا أرى أن أبا تمام قد أذهب حلاوة معناه بتقديم ألفاظه وتأخيرها، وهو من باب التعاظل كقول الفرزدق:

ومـــا مثْلُـــهُ في النـــاس إلا مُمَلَّكـــاً	أخـــو أمِّـــه حَـــيٌّ أبـــوهُ يُقارِبُـــهْ[3]

فبيت الفرزدق هو مثال على المعاظلة أيضا برأي الصفدي، وذلك لما فيه من التقديم والتأخير ونحو ذلك، ويورد غير ناقد هذا البيت مثالا على التعقيد اللفظي في الكلام، فقد أورد القزويني هذا البيت في إيضاحه، ثم شرحه بقوله:" إلا مملكا أبو أمه أبوه، فإنه مدح إبراهيم بن هشام بن إسماعيل المخزومي، خال هشام بن عبد الملك بن مروان، فقال: وما مثله – يعني إبراهيم الممدوح – في الناس، حي يقاربه، أي: أحد يشبهه في الفضائل – إلا مملكا – يعني هشاما، أبو أمه، أي: أبو أم هشام، أبوه – أي أبو الممدوح – فالضمير في (أمه) للملك، وفي (أبوه) للممدوح، ففصل بين (أبو أمه) وهو مبتدأ، و(أبوه) وهو خبره، بـ (حي) وهو أجنبي، وكذا فصل بين (حي) و(يقاربه) وهو نعت (حي) بـ (أبوه) وهو أجنبي،

---

(1) الموازنة بين أبي تمام والبحتري:٢٥٩.

(2) نصرة الثائر على المثل السائر: ٣١٦.

(3) الغيث المسجم في شرح لامية العجم: ١٠٢/٢.

وقدَّم المستثنى على المستثنى منه، فهو كما تراه في غاية التعقيد"[١]. ثم قال معلقا على البيت:" فالكلام الخالي من التعقيد اللفظي ما سلم لفظه من الخلل، فلم يكن فيه ما يخالف الأصل من تقديم أو تأخير أو إضمار أو غير ذلك، إلا وقد قامت عليه قرينة ظاهرة لفظية أو معنوية"[٢].

ومن هنا نجد أن مصطلح المعاظلة صار يعني التعقيد اللفظي في الكلام، الذي ينتج عن التقديم والتأخير والإضمار وما يخالف الأصل في تركيب الكلام وترتيبه وغير ذلك، مما قد يؤدي إلى غموض المعنى.

ولاشك في أن النقاد قد استعانوا بالمعنى اللغوي لكلمة المعاظلة من أجل تحديد معنى المعاظلة اصطلاحيا، ففي اللسان نجد قولهم: "عاظلَتِ الكلابُ معاظَلةً وعِظالاً، وتعاظَلَتْ: لزِمَ بعضُها بعضاً في السِّفاد.... وتعاظَلَتِ الجرادُ: إذا تسافَدَتْ".[٣]و" لا يعاظِلُ بين القول.... أي: لا يُعَقِّدُهُ ولا يُوالي بعضَه فوق بعض، وكل شيء رَكِبَ شيئاً فقد عاظَلَهُ".[٤] ومن هنا فالمعاظلة تعني سوء النسج، وتعقيد النظم، ووعورة الأسلوب.

٦-٢- كان يتجنب وحشي الشعر:

ا لوحشي من اللفظ، والحوشي والمهجور والنادر والغريب، كلها تسميات تطلق على الألفاظ التي قل استعمالها في الكلام، وهجرها الناس في مخاطباتهم وكتاباتهم، ووجودها في الكلام يعني نُبُوَّهُ عن الذوق السليم، وبعده عن الطبع الصحيح، وفي حديث قدامة بن جعفر عن عيوب اللفظ، بيّن أن من ذلك أن "يرتكب الشاعر ما ليس يُستعمل ولا يُتكلم به إلا شاذا، وذلك هو الحوشي الذي مدح عمر بن الخطاب زهيرا بمجانبته له، وتنكبه إياه، فقال: كان لا يتبع حوشي الكلام".[٥]

ثم ذكر أن هذا "الباب مُجَوَّزٌ للقدماء ليس من أجل أنه حسن، لكن من شعرائهم من كان أعرابيا قد غلبت عليه العجرفة، ومسّت الحاجة إلى الاستشهاد بأشعارهم في الغريب، ولأن من كان يأتي منهم بالحوشي -يعني المحدثين- لم يكن يأتي به إلا على جهة التطلب والتكلف، لذلك فهم يأتون منه بما ينافر الطبع، وينبو عن السمع".[٦]

فقدامة يميز بين نمطين من أنماط استخدام اللفظ الوحشي:

---

(١) الإيضاح في علوم البلاغة: ٣٢/١. وانظر كذلك: علم المعاني دراسة وتحليل: ٢١. وعلم المعاني دراسة بلاغية نقدية لمسائل المعاني: ٢٤.

(٢) نفسه: ٣٣/١.

(٣) لسان العرب/مادة عظل، والسفاد مصدر سفد، وسِفادُ الحيوان: نَزْوُ الذَّكَرِ على الأنثى، الرُّكوبُ عليها.

(٤) لسان العرب/مادة عظل.

(٥) نقد الشعر: ١٧٢.

(٦) نفسه

الأول: هو الاستخدام المطبوع من قبل بعض القدماء من الأعراب المتعجرفين، وهذه هي لغتهم، وتلك هي ألفاظهم يأتون بها من غير تكلف أو تصنع، وهذا هو الاستخدام المقبول.

والثاني: استخدام بعض المحدثين لمثل هذه الألفاظ استخداما يغلب عليه التكلف والتعمّل والتعسف، فيأتي كلامهم نابيا نافرا جافيا، وهذا هو الاستخدام المرفوض.

وقد تحدث النقاد كثيرا عن حسن الألفاظ وقبحها، ووضعوا لذلك معايير محددة ودقيقة، منهم ضياء الدين بن الأثير الذي وجد أن معيار حسن الألفاظ وقبحها راجع إلى السمع، لأنها مركبة من مخارج الحروف "فما استلذه السمع منها فهو الحسن، وما كرهه ونبا عنه فهو القبيح"،[1] ثم إنه عاب على جماعة وصفهم بالجهال، إنكارهم لقبح الألفاظ، بحجة أن الواضع لم يضع إلا حسنا، ومن ثم فالألفاظ كلها حسنة، يقول:" ومن يبلغ جهله إلى أن لا يفرق بين لفظة (الغصن) ولفظة (العسلوج)، وبين لفظة (المدامة) ولفظة (الإسفنط)، وبين لفظة(السيف) ولفظة (الخَنْشليل)، وبين لفظة (الأسد) ولفظة (الفَدوْكَس)، فلا ينبغي أن يُخاطب بخطاب، ولا يُجاوب، بل يترك وشأنه".[2]

فالبنية الصوتية للكلمة-كما ذكر ابن الأثير- لها علاقة وثيقة بألفتها وأنسها، لأن الكلمة مؤلفة في الأصل من عدة رموز صوتية هي الأحرف من جهة، وبنفورها ووحشيتها من جهة أخرى، فهنالك كلمات مؤلفة من رموز صوتية متآلفة ومتناغمة ومنسجمة فتعطي صوتا عذبا ومستساغا ومقبولا، وهنالك كلمات أخرى جافية نابية نافرة، لأنها مؤلفة من رموز صوتية ليس بينها تناغم او انسجام.

وإلى جانب هذا الأثر المهم للبنية الصوتية في ألفة اللفظة أو غرابتها، يمكن أن يضاف إليه أمر آخر لا يقل أهمية وخطورة عنه وهو أن وحشية الألفاظ أو أنسها يرتبطان كذلك بالزمان والبيئة، ولذلك فهما أمران نسبيان، وما قد يكون مألوفا ومقبولا في زمان، ما وبيئة ما، قد لا يكون كذلك في زمان آخر، وبيئة أخرى، فاللغة دائمة السعي نحو تنقية نفسها من كل ما يمكن أن يشوب صفاءها، أو يعكر نقاءها في مسيرتها عبر الزمان والمكان، ومن هنا نجد أن ألفاظ اللغة متغيرة ومتجددة في آن معا، فهنالك ألفاظ تموت وتندثر، وفي المقابل هنالك ألفاظ تولد وتُستحدث.

٦-٣- لم يمدح أحدا إلا بما فيه:

وهذا قد يعني أن زهيرا لا يمدح الرجل إلا بالصفات التي يتحلى بها، وبالشيم التي يتصف بها، ولا يبالغ في إسباغ أوصاف أو نعوت ليست موجودة في الممدوح، ولعل الخليفة يشير بهذا إلى مديح زهير في معلقته المشهورة لكل من هرم بن سنان، والحارث بن عوف، اللذين سعيا بالصلح بين القبيلتين المتناحرتين: عبس وذبيان، في الحرب التي كانت دائرة بينهما والتي عرفت بحرب (داحس والغبراء)، بعد

([1]) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٦٩/١.

([2]) نفسه: ١٧٠/١.

أن دفعا دِيّات القتلى من أموالهما الخاصة، فكان لهذا الفعل أثر كبير في نفس زهير، فمدح الرجلين – ولا سيما الأول منهما– بقصائد عدة، فخلدهما عبر الزمن، مثنيا عليهما بما فيهما من خصال حميدة، ومثل رفيعة، وفضائل جمة، وهذا ما أشار إليه الخليفة عمر بن الخطاب نفسه في خبر آخر، مركزا على فكرة تخليد هرم بن سنان من خلال شعر زهير، يقول الخبر:" دخل ابن هرم بن سنان على عمر بن الخطاب فقال له: من أنت؟ قال: أنا بن هرم بن سنان، قال: صاحب زهير؟ قال: نعم، قال: أمَا إنه كان يقول فيكم فيحسن، قال: كذلك كنا نعطيه فنجزل، قال: ذهب ما أعطيتموه، وبقي ما أعطاكم"[١].

وقد نقل الآمدي عن بعضهم قولهم في معنى قول عمر" وكان لا يمدح الرجل إلا بما فيه" أي "أنه أراد: لا يمدح السوقة بما يمدح به الملوك، ولا يمدح التجار وأصحاب الصناعات بما يُمدح به الصعاليك والأبطال وحملة السلاح، فإن الشاعر إذا فعل ذلك فقد وصف كل فريق بما ليس فيه".[٢] وفي هذا الذي يقوله الآمدي إشارة واضحة إلى ما يمكن أن يسمى بالصدق في المدح، والذي يعني أن يمدح الشاعر الممدوح بصفاته الحقيقية التي يتصف بها، ويتجنب أي صفات أخرى ليست فيه، أو ليست منه.

ومن هنا فقد وصف ابن رشيق القيرواني زهير بن أبي سلمى، في معرض تعليقه على كلام عمر" بالحذق في صنعته، والصدق في منطقه، لأنه لا يَحسُنُ في صناعة الشعر، أن يُعطى الرجل فوق حقه من المدح، لئلا يخرج الأمر إلى التنقّص والازدراء".[٣]وهذا أمر صحيح، فالتجاوز في المدح بوصف الممدوح بما ليس فيه، أو بأكثر مما عنده، قد يؤدي إلى نقيض ذلك، أي إلى الاستهزاء به، والسخرية منه، من حيث يدري أو لا يدري، ولعل من الأمثلة على هذا وصف الجاهل بالعلم، ووصف العالم بالجهل، من حيث أنك في الأولى قد أعطيت الجاهل ما لا يستحق، وما ليس فيه وهو العلم، وفي الثانية قد سلبتَ الرجل ما فيه ونزعت عنه ما عنده وهو العلم، وفي الحالتين كلتيهما سيكون الأمر مدعاة للسخرية وللسخط والازدراء.

٧– الخليفة قارئ جيد لشعر زهير:

إن تحديد الخليفة لهذه الأسباب الثلاثة التي ميزت شعر زهير، وجعلته شاعر الشعراء بحسب رأيه، تدل على أنه قارئ جيد لشعر زهير، وتعكس معرفة عميقة بهذا الشعر، كما أنها تعني وعيا حقيقيا بوظيفة الشعر وغايته وبنيته وخصائصه، ولعل الناظر المدقق في شعر زهير بن أبي سلمى يلمس بغير عنت أو مكابدة، أن ذلك الشعر يتصف في كثير منه بالصفات الثلاث التي ذكرها الخليفة فمن ذلك

---

(١) العقد الفريد: ٢٩٢/٥.

(٢) الموازنة بين أبي تمام والبحتري: ٢٩٣/٣-٢٩٤.

(٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ١/ ٢٠٩.

مثلا شعر الحكمة عنده الذي يبتعد عن المعاظلة، وينأى عن أي تعقيد في صياغة ألفاظه، ولا تجد فيه من اللفظ الغريب أو الحوشي ما يشينه، أو يجعله غامضا غير مفهوم، ومن ذلك أيضا مديحه لكل من هرم بن سنان والحارث بن عوف الذي ينطبق عليه ما ذكره الخليفة من أنه كان لا يمدح الرجل إلا بما فيه، وذلك نظرا لما يلمسه القارئ لذلك المديح من صدق في المشاعر، وتطابق مع حال الرجلين وواقعهما وأفعالهما ولا سيما الأول منهما.

٢- الخبر النقدي الثاني: (خبره مع الحطيئة)

"أتى الزبرقان بن بدر، عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وقال له: إنه هجاني - يعني الحطيئة- قال عمر: وما قالَ لكَ؟ قال: قال لي:

دع المكـــارمَ لا ترحَـــلْ لبُغْيَتِهـــا		واقعُـدْ فإنـكَ أنـتَ الطّـاعِمُ الكاسـي

فقال له عمر: ما أسمعُ هجاءً، ولكنها معاتبة، فقال الزبرقان: أَوَ ما تبلُغُ مروءتي إلا أن آكُلَ وألبَسَ؟ فاستدعى عمر حسانا وسأله، فقال: لم يهْجُهُ، ولكنه سلَحَ[1] عليه، أيْ هجاهُ وأفحَشَ في هجائه، فأمَرَ بحبْسِهِ وقال: يا خبيث، لأشغلَنَّكَ عن أعْراضِ المسلمين، وظلَّ في محْبِسِهِ حتى تشفَّعَ له عمرو بن العاص، فأخرجَهُ عمر، وقال له: إيّاكَ وهجاءَ الناس، قال: إذاً يموتُ عيالي جوعاً، هذا مَكْسَبي ومنه مَعاشي، قال عمر: فإيّاكَ والمقْذِعَ من القول، قال: وما المقذعُ؟ قال: أن تُخايِرَ بينَ الناس، فتقولَ: فلانٌ خَيْرٌ من فلان، وآلُ فلانٍ خيرٌ من آلِ فلان، قال: فأنتَ واللهِ أهْجَى مني، فقال عمر: واللهِ لولا أنْ تكونَ سُنَّةً لقَطَعْتُ لسانَكَ.

ويقال إن عمر لما أطْلقَ الحطيئة، أرادَ أن يؤكِّدَ عليه الحُجَّةَ، فاشترى منه أعراضَ المسلمين جميعاً بثلاثةِ آلافِ درهم، فقال الحطيئةُ في ذلك:

وأخـذتَ أطْـرافَ الكـلامِ فلـم تَـدَعْ		شَـــتْماً يَضُـــرُّ ولا مـــديحاً ينْفَـــعُ
وحَمَيْتَـــني عِـــرْضَ اللئـــيم فلـــمْ يخَـــفْ		ذَمّـــي وأصـــبَحَ آمِنـــاً لا يَفْـــزَعُ

وقد كفّ الحطيئة عن الهجاء طوال حياة عمر، ثم عاد إليه بعد وفاته.

وكان الحطيئة قد استعطف عمر بأبيات منها قوله:

([1]) سَلَحَ سَلْحا وسُلاحاً: راثَ. المعجم الوسيط: مادة/ سلح.

مـــاذا تقـــولُ لأفْـــراخ بـــذي مَـــرَخ		زُغْـبِ الحَواصِـلِ لا مـاءٌ ولا شـجَرُ".

قراءة الخبر:

يتضمن هذا الخبر جملة من النقاط التي تميزه من الأخبار النقدية السابقة، وهذه النقاط هي:

١- أثر الشعر في حياة الناس:

فقد كان للشعر أثر كبير في حياة الناس، وذلك نظرا للمكانة الكبيرة التي كان يتمتع بها الشعر في ذلك الوقت، وقدرته على التأثير في سلوك القوم، وفي أفعالهم، ونحو ذلك، ومن هنا فقد كان الناس يخشون لسان الشاعر إن أقدم على الهجاء، ويتهللون فرحا إن هو مدح أو أثنى، لأن هذا الشعر سينتشر بين الناس انتشار النار في الهشيم، وسيسمع به القاصي والداني، ويردده الصغير والكبير، ويعنى به العامة والخاصة، فقد كان هذا الشعر بمثابة وسائل الإعلام في عصرنا الحاضر، وكذلك وسائل التواصل الاجتماعي، وليس يخفى على أحد ما لهذه الوسائل بشقيها الإعلامية والاجتماعية من تأثير بالغ في الحياة اليومية للناس، بكل أبعادها وتفاصيلها الاجتماعية والتربوية والاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك، ومن هنا يمكن أن نفهم السر وراء غضب الزبرقان بن بدر التميمي، وهو السيد والزعيم في قومه، من هجاء الحطيئة له، هذا الهجاء المر الذي مسخ زعيم القوم، وحوّله إلى مجرد رجل تقتصر مهمته في هذه الحياة على إطعام من حوله وكسوتهم، مما يمكن أن تقوم به النسوة، أو الأشخاص العاديون، ومن هنا أيضا نفهم سر شكواه إلى الخليفة، فقد ساءه هذا الهجاء، وأرّقه وأقلقه، إلى الحد الذي دفعه إلى أن يشكو الحطيئة إلى الخليفة، حتى يضع له حدا، ويأخذ له حقه منه.

ويتضح أثر الشعر في حياة الناس، وفي نفوسهم أيضا، من تفاعل الخليفة مع الأبيات التي أرسلها الحطيئة له من سجنه يخاطب فيها أحاسيسه ومشاعره، ويستعطفه فيها، ويطلب منه الرأفة بأبنائه، والشفقة عليهم، فهم صغار ولا معيل لهم إلا والدهم المرمي في غياهب السجن، ولذلك فقد رق قلب الخليفة، وتأثر بهذا الشعر الذي كان سببا من أسباب إطلاق سراحه، شريطة ألا يرجع إلى ما أطلق عليه الخليفة تسمية (الهجاء المقذع).

٢- موقف الخليفة من الشكوى وحكمته في التعاطي معها:

حاول الخليفة بحكمته وأناته أن يخفف من غضب الزبرقان وانفعاله، ويسكّن من حنقه ضد الحطيئة، فبيّن له أنه لا يرى في البيت هجاء، بل يرى معاتبة، والعتاب لا يكون بين المتباعدين والمتباغضين، بل يكون بين المتحابين، وبين من تربطهم أواصر المودة والألفة، ولذلك فإن الأمر لا يستدعي كل هذا الغضب، ولا يستلزم كل هذا الانفعال، ولكن محاولة الخليفة لم تفلح في تهدئة الرجل، لأنه يدرك ما في البيت من هجاء مُرٍّ، ويعي مقدار الإساءة التي وجهها إليه الحطيئة في هجائه، ولا شك

في أن الخليفة يدرك أيضا مضمون هذا الهجاء الممض والمؤلم تمام الإدراك، ويعلم فحواه يقينا، وهو ما سنبينه ونقف عليه لاحقا، إلا أنه لا يريد أن يؤجج الخصومة بين الرجلين، ولا يريد أن يتفاقم الأمر بينهما ليصل إلى درجة العداوة والبغضاء، انطلاقا من موقعه الديني والاجتماعي والسياسي، فسيد القوم ليس هو ذاك الذي يصب الزيت على النار فيؤجج الخصومة بين أهله وذويه، ويعمق الهوة والخلاف بين من حوله، بل هو ذاك الرجل الذي يصلح بين قومه إن تخاصموا، ويؤلف بين قلوبهم إن تنافروا، ويردم ما بينهم من خلافات، وينهي ما بينهم من صراعات.

٣- الخليفة يستشير حسان بن ثابت الشاعر:

القاضي العادل هو الذي لا يصدر حكمه إلا بعد أن يتثبّت منه، ويتأكد من صحته، بعد أن يجمع الأدلة الكافية التي تعينه على إصدار حكمه، فيستشير أصحاب الرأي والاختصاص، ويستأنس بملاحظات أهل الخبرة، وهذا ما فعله الخليفة في هذا الخبر، إذ استدعى حسان بن ثابت الشاعر، وهو الخبير والمختص في القضية التي بين يديه، ليسأله ويأخذ رأيه حتى يكون حكمه دقيقا وعادلا ومقنعا لطرفي الخصومة معا، فأعطى حسان رأيه مؤكدا على شدة الهجاء في البيت بقوله:" لم يهجه ولكه سلح عليه" أي هجاه وأفحش في هجائه، وهذا لا يعني أبدا أن الخليفة لم يكن يدرك تمام الإدراك حقيقة الهجاء في البيت الشعري، ويعي شدة هذا الهجاء وقسوته، "ومن الذي يرتاب في فهم عمر للشعر، وعلمه بأسراره ودخائله؟ ...ولكنه كان يريد أن يدرأ العقوبة بالشبهة، وأن يتجاوز للشاعر عن هذه الهفوة التي لا يتحرج منها الشعراء"،[١] وهذا هو عين الصواب، فهو يريد أن يدرأ حكمه بأية شبهة قد تلحق بهذا الحكم، ومن ثم يبرئ نفسه أمام الله وأمام نفسه وأمام الناس من جهة، كما أنه يريد أن يحقق لحكمه الإقناع الكافي عند الفريقين المتخاصمين من جهة أخرى، وهذا ما كان بالفعل، إذ أصدر حكمه بسجن الحطيئة عقابا له على هجائه للزبرقان بعد أن تأكدت إدانته، وثبتت إساءته، بشهادة صاحب الخبرة والاختصاص.

وهذا ما تنبه عليه بعض القدماء عندما تحدثوا عن هذا الخبر، فقد روى الجاحظ تعليق العائشي على موقف عمر من الهجاء والهجائين فقال:" كان عمر بن الخطاب . رضي الله عنه- أعلم الناس بالشعر، ولكنه كان إذا ابتلي بالحكم بين النجاشي والعجلاني[٢]، وبين الحطيئة والزبرقان، كره أن يتعرض للشعراء، واستشهد للفريقين رجالا مثل حسان بن ثابت وغيره ..... فإذا سمع كلامهم، حكم بما يعلم، وكان

---

(١) حديث الأربعاء: ١/١٣٢.

(٢) إشارة إلى قصة مشابهة لقصة الحطيئة والزبرقان، حدثت بين النجاشي الشاعر والعجلاني، وسنذكر الخبر لاحقا.

الذي ظهر من حكم ذلك الشاعر مقنعا للفريقين، ويكون هو قد تخلص بعرضه سليما، فلما رآه من لا علم له يسأل هذا وهذا، ظن أن ذلك لجهله بما يعرف غيره".[1]

ولعل من نافلة القول أن نشير إلى أن هذا الذي فعله الخليفة باستشارته أهل الرأي والخبرة في القضية المطروحة أمامه، هو أمر معمول به في المحاكم في زمننا، فهنالك في هذه المحاكم ما يعرف بالخبرة الفنية التي يستعين بها القضاة في القضايا المختلفة قبل إصدار أحكامهم، وهذه الخبرة الفنية تتنوع لتشمل مختلف الاختصاصات والمجالات الطبية والهندسية والعقارية والزراعية وما إلى ذلك، فالقاضي لا يعرف، وليس مطلوبا منه أن يعرف الاختصاصات العلمية المختلفة، فهو مختص بالقانون، ومعرفته تتركز في هذا الجانب، فإن عرضت له قضايا لها علاقة باختصاصات علمية مختلفة، فإنه يستعين بأهل الخبرة المعتمدين رسميا في المحاكم، ليقدموا آراءهم، ويعطوا استشاراتهم، التي سيستفيد منها القاضي في القضايا التي يعالجها، ومن ثم في إصدار الأحكام القضائية المناسبة والعادلة للمتخاصمين.

٤– الخليفة يحدد مفهوم الهجاء المقذع:

حدد الخليفة مفهوم الهجاء المقذع، ولعل هذا النوع من الهجاء يكون أشد أنواع الهجاء قسوة عند العربي، وأكثره إيلاما، وهو الهجاء القائم في أساسه على المخايرة بين الناس، وتفضيل بعضهم على بعض، وهذا ما ذهب إليه الخليفة عندما سأله الحطيئة قائلا: "وما المقذع؟ قال: أن تخاير بين الناس، فتقول: فلان خير من فلان، وآل فلان خير من آل فلان".

ويبدو أن هذا النمط من الهجاء يكون أقسى وأشد عندما تكون المخايرة بين والأهل الأقارب وأبناء العمومة ونحو ذلك، وذلك لأن من طبع المرء على ما يبدو ألا يُسرَّ بتفوق القريبين منه عليه، فهذا أمر يسوءه ويزعجه، ولعل الأمر يكون أقل قساوة عندما يتعلق الأمر بتفوق البعيدين عن هذا الشخص أو ذاك، فالغيرة – وربما الحسد أيضا – قد تكون أكثر بين الأقارب منها بين الأباعد، وبين الأصدقاء أكثر منها بين من لا تربطهم روابط معرفة أو تقارب، ومن الأمثلة على هذا النمط من الهجاء ما فعله جرير عندما هجا الراعي النميري، مفضلا أبناء عمومته من بني كعب، وكلاب عليه، بقوله في البيت المشهور:

فغُضَّ الطّرْفَ إنكَ من نُمَيْرٍ	فلا كعباً بلَغْتَ ولا كِلابا

(1) البيان والتبيين: ١/٢٣٩.

فكان هذا من الهجاء المؤلم والممض والموجع، وانتشر البيت بين الناس انتشار النار في الهشيم، حتى إن الرجل من بني نمير بن عامر صار يخشى أن يصرح بأنه من نمير، فإن قيل له ممن الرجل؟ فكان يقول: من بني عامر. [1]

فالخليفة لا يريد أن يلغي غرض الهجاء من قاموس الشعر والشعراء، فالهجاء قائم بين الناس ما دامت الحياة، والهجاء نمط من أنماط الحصول على الرزق والمال وكسب العيش، وهذا ما نجده في حالة الحطيئة، الذي صرّح للخليفة بأنه لا يستطيع التخلي عن هجاء الناس، لأن عياله سيموتون جوعا، فمن الهجاء مكسبه، ومنه معاشه، ويبدو أن الخليفة وافق على ما قاله الحطيئة، واقتنع بوجهة نظره، ولكنه مع ذلك نهاه عما أسماه بالهجاء المقذع، لأن هذا من شأنه أن يثير العداوة والكراهية بين الناس، ويسعى إلى تفرقتهم، ويحطم أواصر اللُّحمة والترابط بينهم؛ الأمر الذي سيؤدي إلى تفكك عرى المجتمع بأسره، وغياب المحبة والمودة بين الناس، وهذا ما لا ينسجم مع ما تدعو إليه الشريعة السمحاء، وتسعى إلى توطيده وتعزيزه، من ضرورة بث التراحم والتوادد والتواصل بين أبناء المجتمع.

وأما عن رد الحطيئة على الخليفة بعد أن عرّف له الهجاء المقذع، وهو قوله:" فأنت والله أهجى مني"، فهو لا يريد أن الخليفة أبرع منه في الهجاء، بل إن ما يريده هو أن الخليفة أكثر بصراً منه بمعرفة مفهوم الهجاء، وأكثر إدراكا لحقيقة الهجاء وأنواعه وأساليبه وأنماطه.

([1]) انظر الممتع في صنعة الشعر: ١٧٢.

ثانيا- النقد عند الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-:

يعد الخليفة الراشدي علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- من أكثر الخلفاء الراشدين اهتماما بالشعر والشعراء، ونُقل عنه قوله:" الشعر ميزان القول، ورواه بعضهم: الشعر ميزانُ القوم"[1]وله شعر كثير، وقد أورد ابن رشيق القيرواني بعضا من شعره، وقال :" وكان مُجَوِّدا" فمن ذلك ما قاله يوم صفين يذكر هَمْدان ونصرَهم إياه:

ولمـــا رأيــــتُ الخيـــلَ تُــــرْجَمُ بالقَنـــا		نواصِـــــيُّها حُمْـــــرُ النّحــــور دَوامِ
وأَعْـــــرَضَ نَقْـــعٌ في الســـــماء كأنـــه		عَجاجَــــةُ دَجْـــنٍ مُلْـــبَسٍ بقَتـــامِ
ونادى ابـــنُ هنـــدٍ في الكَـــلاع وحِمْـــيَرٍ		وكِنْــــدَةَ في لَخْــــمٍ وحَـــــيّ جُـــذامِ
تيمَّمْـــتُ هَمْـــدانَ الـــذين هُـــمُ هُـــمُ		– إذا نابَ دهـرٌ- جُنّـتي وسِـهامي[2]

وسنعتمد في حديثنا عن النقد عنده، على خبر نقدي مهم، يعد من أهم الأخبار النقدية التي نُقلت عنه، وكذلك من أهم الأخبار النقدية التي تعود إلى عصر صدر الإسلام.

---

(1) العمدة: ٨٦/١.

(2) العمدة: ٩٧/١-٩٨. والنواصي: ج. ناصية، وشعر مقدمة الرأس. والنقع: الغبار المتطاير من حوافر الخيل. والعجاجة: الغبار والدخان. والدجن: إلباس الغيم السماء. والقتام: الغبار، ابن هند: معاوية بن أبي سفيان. والكلاع وحمير وكندة ولخم وجذام: قبائل وبطون يمنية. وهمدان: من قبائل اليمن. الجُنة والمِجَنّ: التُّرس وما يُسْتَتَرُ به من السلاح.

الخبر النقدي:

روي أنه" كان يُفطر الناس في شهر رمضان، فإذا فرغ من العِشاء، تكلم فأقل، وأوجز فأبلغ، قال: فاختصم الناس ليلة في أشعر الناس، حتى ارتفعت أصواتهم، فقال رضوان الله عليه لأبي الأسود الدؤلي: قل يا أبا الأسود . وكان يتعصب لأبي دؤاد . فقال: أشعرهم الذي يقول:

ولقـــد أغتـــدي يدافـــعُ ركـــني		أحْـــوَذِيٌّ ذو مَيْعـــةٍ إضريـــجُ [1]
مخلـــطٌ مـــزيدٌ مكـــرٌّ مِفـــرٌّ		مـــنفحٌ مطـــرحٌ سَـــبوحٌ خَـــروجُ[2]
ســـلْهَبٌ شَـــرْحَبٌ كـــأن رماحـــاً		حملتْـــه وفي السّـــراةِ دَمـــوجُ[3]

فأقبل أمير المؤمنين على الناس فقال: كل شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد، وغاية واحدة، ومذهب واحد في القول، لعلمنا أيَّهم أسبق إلى ذلك، وكلهم قد أصاب الذي أراد فيه، وإن يكن أحدُهم أفضل، فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة، امرؤ القيس بن حجر، كان أصحهم بادرة، وأجودهم نادرة".[4]

قراءة الخبر:

إن التدقيق في هذا الخبر النقدي المهم ينتهي بنا إلى تقديم الملاحظات النقدية الآتية:

١- الاهتمام بالحركة الشعرية:

يتضح في الخبر اهتمام الناس في عصر صدر الإسلام عامة، والخليفة الراشدي علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– خاصة، بالشعر والشعراء، والحركة الشعرية، حتى في شهر الصوم؛ شهر رمضان المبارك، وهذا يعني أن عباداتهم كالصوم وغير، لم تكن لتثنيهم عن الاهتمام بالشعر، والحديث عن أعلامه، ومناقشة قضاياه المختلفة.

٢- قيام الخصومات والمنازعات حول أشعر الشعراء:

---

(١) الأحوذي: الخفيف الحاذق، ماع الفرس: جرى، الإضريج: الجواد.

(٢) المنفح: المندفع، سبوح: الخيل يسبح بيديه، خروج: طويل العنق.

(٣) سلهب: فرس طويل، والسراة: الظهر، ودموج: متداخل بعضه في بعض.

(٤) الرسالة الشافية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن : ١١٨-١١٩.

ومما يلفت النظر في هذا الخبر أيضا، قيام الخصومات والمنازعات حول أشعر الشعراء، فقد كانوا يحتفلون بهذا الجانب أيما احتفال، ويولونه من العناية الشيء الكثير، وكانت المفاضلة بين الشعراء الهاجس الأكبر لهم في حديثهم عن الشعر وقضاياه المختلفة، إلا أنهم لم يتفقوا على تحديد الأفضل من الشعراء، لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وذلك بسبب اختلاف الأذواق والميول والأهواء، وتباين العقول، وتمايز الاتجاهات في النظر إلى الشعر والشعراء –كما مر بنا سابقا–.

٣– الإفراط والتعصب في النظر إلى الشعراء:

ثمة إفراط عند بعض الناس في الميل لهذا الشاعر أو ذاك، وهو إفراط يصل حد التعصب في بعض الأحيان، وهذا ما يتجلى في تقديم أبي الأسود الدؤلي لأبي دؤاد الإيادي، الذي كان يتعصب لشعره – كما يشير الخبر–.

٤– أبو الأسود الدؤلي يختار نموذجا من شعر الشاعر الذي يفضله:

اختار أبو الأسود الدؤلي أبياتا لشاعره المفضل أبي دؤاد الإيادي، لتكون نموذجا شعريا يدلل من خلاله على تفوق شاعره وتميزه، وسبب تقديمه وتفضيله على سائر الشعراء من وجهة نظره، وقد تضمنت الأبيات جملة من المعاني في وصف الفرس مثل: خفة الحركة، والسرعة، والطول، والرشاقة ونحو ذلك من صفات نجدها تتكرر كلها أو بعضها، عند الشعراء الذين عنوا بوصف الفرس، كامرئ القيس مثلا الذي برع في وصف الفرس في ولا سيما في معلقته، وكلنا يذكر بيته الذائع الصيت الذي يقول فيه:

مِكـــرٍّ مِفـــرٍّ مُقبـــلٍ مُـــدبِرٍ معـــاً	كجُلمودِ صخرٍ حطَّهُ السيلُ من علِ

ولعل أبا دؤاد قد تأثر بامرئ القيس في هذا البيت وفي غيره.

ومهما يكن من أمر؛ فإن تدقيق النظر في أبيات أبي دؤاد من الناحية الفنية والجمالية، يجعلنا لا نبدي كثيرا من الإعجاب بها، أو الدهشة بما تضمنته من معان وصور، بحيث تكون متفوقة على غيرها في بابها، اللهم إلا إذا كان اختيارها من قبل أبي الأسود غير مقصود لذاته، وجلُّ ما في الأمر أنه أراد أن يحدد الشاعر الأفضل من وجهة نظره، فحضرَتْهُ هذه الأبيات فساقها نموذجا من شعر الرجل ليس أكثر.

٥– حكمة الخليفة وحنكته وذكاؤه:

تتضح في الخبر حكمة الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– وحنكته وذكاؤه عندما تدخّلَ لفضّ الخصومة بين المتخاصمين، وحسم النزاع بين المتنازعين، عندما أشار إلى أن كل الشعراء قد أحسنوا فيما يقولون، وأنهم جميعا قد أصابوا الذي أرادوه في أشعارهم (كل شعرائكم محسن، وكلهم قد أصاب الذي أراد فيه) ولم نجده يفضل شاعرا على شاعر، أو يقدم واحدا على آخر، حتى لا يثير حساسية الناس بعضهم تجاه بعضهم الآخر، ولم يفعل ذلك إلا بعد أن حدد مقاييس الموازنة التي يراها صالحة للمفاضلة بين الشعراء، فذكر شاعره المفضل على غيره من الشعراء، وهو امرؤ القيس.

٦– الخليفة يضع مقاييس الموازنة بين الشعراء:

وضع الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– مقاييس دقيقة للموازنة بين الشعراء، وهذه المقاييس هي:

٦–١– الزمن الواحد:

فالموازنة الصحيحة والموضوعية بحسب رأي الخليفة، هي التي يُراعى فيها عنصر الزمن، أو العصر الذي عاش فيه الشعراء الذين نرغب في عقد الموازنة فيما بينهم، وهذا هو المقياس الأول من مقاييس الموازنة عنده، لأن الموازنة في هذه الحالة ستكون أجدى، وأكثر نفعا، وأوفر دقة، وأقرب إلى الموضوعية، بسبب ما قد يجمع بين الشعراء المتعاصرين من وحدة في الرؤى، وتماثل في الأفكار، وتشابه في ظروف الإبداع، وتقارب في الظروف الاجتماعية والسياسية والثقافية ونحو ذلك مما قد يكون متباينا بين العصور، ومتفاوتا عبر مر السنين وتوالي الأعصر، ومن هنا فإن الموازنة بين شعراء من عصور مختلفة، قد لا تكون دقيقة تماما، ولا تعطي النتائج المرجوة منها، ولا تتصف بالموضوعية الكافية التي يتوخاها الناقد الموازن، ويسعى إليها في نقده.

والخليفة –رضوان الله عليه– بوضعه هذا المقياس، نبّه النقاد إلى مقياس نقدي مهم في العملية النقدية عموما، وفي الموازنة بين الشعراء خصوصا، ومن هنا كان السجال الطويل بين النقاد والرواة واللغويين حول الخصومة بين القدماء والمحدثين، فانقسم الناس إلى فريقين: أولهما يفضل الشعر القديم ويتعصب له ضد الشعر المحدث، وثانيهما حاول أن ينصف الشعر المحدث وينصف شعراءه، فرأى أن

الجودة لا تقتصر على الشعر القديم وحده، بل هي موجودة كذلك في الشعر المحدث، وكذلك الرداءة فهي لا تقتصر على الشعر المحدث فقط، بل تمتد كذلك لتصل إلى الشعر القديم.

ولو وعى النقاد كلام الخليفة، وراعوا مسألة اختلاف الزمن بين الشعراء، وما يستتبع ذلك من اختلاف في الظروف المحيطة بالإبداع الشعري، لاختلفت نظرتهم إلى الشعر والشعراء، ولكانوا أكثر موضوعية في دراستهم للشعر في العصور المختلفة.

٦-٢- الغاية الواحدة:

التي قد يعني بها الخليفة وحدة الغرض، أو وحدة الموضوع في القصيدة، فالموازنة الحقة هي التي تُعنى بالنصوص ذات الأغراض المتماثلة، والموضوعات المتشابهة، وتنأى عن النصوص ذات الأغراض المتباينة، والموضوعات المختلفة، وذلك لأن تباين الأغراض، واختلاف الموضوعات، يعني بالضرورة تباين الأفكار، وتباعد الرؤى، واختلاف طرائق التعبير ونحو ذلك، ومن هنا فإن موازنةً بين قصيدتين إحداهما في الغزل، والأخرى في الهجاء مثلا قد لا تصح، لا بل إنها لا تصح فعلا، ولا تعطي النتائج التي يتوخاها الناقد من وراء هذه الموازنة، وهكذا في سائر الأغراض التي لا يربط بينها رابط، ولا يجمع بينها جامع، ولذلك فالموازنة الصحيحة إذا، هي تلك التي تقوم على مراعاة التشابه في الموضوعات، والتماثل في الأغراض، كالموازنة بين الغزل والغزل، أو بين المديح والمديح وهكذا.

ويرجع الفضل للخليفة ها هنا أيضا، في أنه لفت النظر إلى ضرورة الانتباه إلى الأغراض الشعرية في العملية النقدية، والاهتمام بها مقياسا مهما من المقاييس النقدية في دراسة الآثار الأدبية وتقويمها، وهذا ما رأيناه عند كثير من النقاد الذين اعتمدوا على الأغراض الشعرية مقياسا من مقاييس المفاضلة بين الشعراء، والترجيح فيما بينهم، فكثيرا "ما كان يُقدَّمُ شاعر على آخر وفقا للأنماط الشعرية التي يحسنها، وتبعا للأغراض الشعرية التي تنتظم شعره، وعدد تلك الأغراض وتنوعها في أشعاره".[١]

فابن سلام الجمحي يشير في (طبقاته) إلى أن أصحاب الأعشى قدموه على غيره لأسباب كثيرة منها: أنه كان "أذهبهم في فنون الشعر.... وأكثرهم مدحا، وهجاء، وفخرا، ووصفا"، ويوازن بشار بن برد بين جرير والفرزدق فيقول:" كانت لجرير ضروب من الشعر لا يحسنها الفرزدق، ولقد ماتت النوار

---

(١) الموازنة في النقد العربي حتى القرن الخامس الهجري: ٥٥٠.

وهي زوجة الفرزدق، فقاموا ينوحون عليها بشعر جرير"[1] وهذا يدل دلالة واضحة على أهمية الأغراض الشعرية في النقد عموما، وفي الموازنة بين الشعراء خصوصا.

٦-٣- المذهب الواحد:

وقد يقصد به الخليفة ما عُرف فيما بعد بمذاهب الشعر، وطرائق الشعراء التي يتبعونها في بناء قصائدهم، كمذهب الطبع، ومذهب الصنعة، ومذهب التصنع، ومذهب التكلف وما إلى ذلك، فالموازنة الصحيحة هي تلك التي يهتم فيها الناقد بوحدة المذهب بين القصائد التي يوازن بينها، فيوازن بين الأشعار التي يجمعها مذهب الصنعة مثلا، أو بين القصائد التي تعتمد على مذهب الطبع ونحو ذلك، لأن هذا من شأنه أن ينتهي بالناقد الموازن إلى دراسة نقدية هي أقرب ما تكون إلى الموضوعية، وسينتهي به كذلك إلى إصدار أحكام نقدية دقيقة ومحكمة وعادلة، بخلاف ما لو عمد إلى الموازنة بين قصيدتين مثلا في مذهبين مختلفين، كأن تكون إحداهما مطبوعة، والأخرى مصنوعة، أو بين شاعرين، أحدهما صاحب صنعة، والآخر مطبوع، فهذا من شأنه أن يحيد بالموازنة عن جادة الحق، وعين الصواب، وينأى بها عن الموضوعية المطلوبة في النقد.

ولعل هذا هو ما حدث مع الآمدي (٣٧٠هـ) في موازنته بين كل من أبي تمام والبحتري، فهما مختلفان من حيث المذهب الشعري، فأحدهما صاحب صنعة في شعره، وخرج على عمود الشعر، وهو أبو تمام، وثانيهما اتبع مذهب الطبع في شعره والتزم عمود الشعر، وهو البحتري، وهذا ما أدركه الآمدي نفسه عندما عرض حجج الخصمين في الشاعرين، فذكر نقلا عن صاحب أبي تمام قوله:" فأبو تمام انفرد بمذهب اخترعه، وصار فيه أولا، وإماما متبوعا، وشُهر به حتى قيل: هذا مذهب أبي تمام، وطريقة أبي تمام، وسلك الناس نهجه، واقتفوا أثره ..... وحصل للبحتري أنه ما فارق عمود الشعر وطريقته المعهودة، مع ما نجده كثيرا في شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة، وانفرد بحسن العبارة، وحلاوة الألفاظ، حتى وقع الإجماع على استحسان شعره واستجادته....". [2]

([1]) طبقات فحول الشعراء: ٢/ ٤٥٦، وانظر الموشح: ١٨٤. وانظر للاستزادة حول هذا الموضوع، الموازنة في النقد العربي حتى القرن الخامس الهجري: ٥٥٠ وما بعدها.

([2]) الموازنة بين أبي تمام والبحتري: ١٦-٢٠، بتحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

ويبدو أن اختلاف مذهبي الشاعرين أبي تمام والبحتري، كان واحدا من الأسباب التي جعلت الآمدي يحيد عن العدل والإنصاف في بعض فصول موازنته، وأدت به إلى بعض الميل إلى طرف البحتري، وترجيح كفته على كفة أبي تمام، لأنه شعره يتوافق مع رؤيته النقدية في بناء الشعر، وينسجم مع ميله إلى ترجيح الشعر المطبوع والملتزم بعمود الشعر عند العرب، على الشعر المصنوع والخارج على عمود الشعر وطرائق العرب في بناء الشعر، وهذا ما أشار إليه وأكده غير مرة في كتابه، فهو كثيرا ما يردد أمثال هذه العبارات: هذا الوصف ضد ما نطقت به العرب[١]، ومن عادة العرب[٢]...، وهذا مذهب حسن معروف من مذاهبهم[٣]، فهذه طريقة القوم في هذا[٤]، وهذا خلاف ما عليه العرب، وضد ما يعرف من معانيها[٥]، ونحو ذلك من عبارات تعكس وفاء الآمدي في نقده لطرائق العرب التقليدية في بناء الشعر، وأدى به من ثم إلى الميل نحو شعر البحتري، وتفضيله على شعر أبي تمام في كثير من المواضع، ولعله لو أفاد من نصيحة الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– بضرورة مراعاة التوافق في المذهب الشعري بين الشعراء الذين نرغب بالموازنة بينهم، لما وقع في هذا المأزق النقدي، وربما لما وازن أصلا بين الشاعرين، بل اختار شاعرين متفقين بالمذهب الشعري.

٧– الخليفة يحدد الشاعر المفضل عنده:

أدلى الخليفة علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– برأيه في من يراه أفضل الشعراء من وجهة نظره، فرأى أن امرأ القيس هو الشاعر المفضل عنده، ودلّل على ذلك من خلال سمتين اثنتين واضحتين في شعره وهما:

السمة الأولى: هي أنه لم يقل الشعر رغبة في عطاء من ممدوح، أو طمعا في نيل جائزة من ملك أو أمير، أو ما إلى ذلك مما كان يفعله بعض الشعراء ممن اشتهروا بالمدح بهدف التكسب والحصول على المال، وسلكوا في سبيل ذلك كل مسلك، وسعوا لتحقيق ذلك كل السعي، واجتهدوا فيه اجتهادا عظيما، كالأعشى، والحطيئة وأمثالهما من الشعراء الذين عُرفوا بالتكسب في أشعارهم.

---

(١) نفسه.

(٢) نفسه: ١/١٤٤.

(٣) نفسه: ١/١٤٨.

(٤) نفسه: ١/١٧٩.

(٥) نفسه: ١/١٩٩.

والسمة الثانية: هي أنه لم يقل الشعر رهبة من ملك، أو خوفا من أمير، أو ما إلى ذلك مما رأيناه عند بعض الشعراء الآخرين كالنابغة الذبياني مثلا في اعتذارياته للنعمان بن المنذر، والتي كان دافعها الأساسي هو الخوف من النعمان، والخشية من عقابه.

ويبدو أن الواقع الحياتي الذي كان يعيشه امرؤ القيس، هو الذي وفر له تحقيق هاتين السمتين في شعره، فقد كان ابن ملك، وهذا جنّبَهُ التكسب في شعره، وكفاه مؤونة إراقة الوجه أمام الأغنياء من جهة، ومنحه القوة التي تحصّن بها أمام الأقوياء من جهة أخرى.

٨- الخليفة ينبّه على صفتين من صفات شعر امرئ القيس:

نبّه الخليفة على صفتين اثنتين مهمتين اتصف بهما شعر امرئ القيس، وكانتا إلى جانب صفات أخر من الصفات التي أهّلته للتفوق على أقرانه، ومكّنته من التقدم عليهم، وهاتان الصفتان هما:

الصفة الأولى: أنه كان أصح الشعراء بادرة:

ولعله أراد بهذه الصفة تمكّن امرئ القيس الفائقة من تناول المعاني، وتميزه في التقاط الطريف والجديد والبديع منها، واستيفاءه الحديث عن المعنى من جوانبه كافة، بحيث لا يبقي فيه لغيره بقية، ولا يترك لهم شيئا يمكن أن يستدركوه عليه في هذا المعنى أو ذاك، بعكس كثير من الشعراء الذين قد لا يحسنون تناول المعاني، ولا يجيدون التعبير عنها، أو الإحاطة بتفاصيلها ودقائقها.

والصفة الثانية: أنه كان أجود الشعراء نادرة:

ولعله يعني بهذا ندرة المعاني وطرافتها وفرادتها، وهذه أيضا سمة واضحة في شعر امرئ القيس، ففي شعره الكثير من المعاني النادرة والطريفة والفريدة، التي جرت على ألسنة الناس مجرى المثل، ورددوها وأكثروا من تداولها إعجابا وتقديرا واستحسانا، وقد تنبه النقاد لمثل هذه الأبيات المتميزة في شعره وفي أشعار غيره، فسموها (الأبيات المقلدة) وهي الأبيات القائمة بنفسها، المستغنية عن غيرها، وجعلوها من الأدلة المهمة على تميز الشاعر، وتفوقه في عمل الشعر، وعلى شعريته الفذة، فكثرتها في شعر شاعر من الشعراء، تدل على براعته وتميزه، وقلتها تدل على ضعفه وفقره الشعري.

وقد ذكر النقاد لامرئ القيس الكثير الكثير من الأبيات المقلدة، حتى صار من أكثر الشعراء اختراعا للمعاني، وابتداعا لكل جديد فيها.[1]

٩- التعليل في الخبر:

يبرز التعليل واضحا في هذا الخبر، فالخليفة علل سبب تفضيله امرأ القيس على سائر الشعراء لأسباب ذكرها وهي: أنه لم يقل رغبة ولا رهبة، وأنه أصح الشعراء بادرة، وأجودهم نادرة، وظاهرة التعليل هذه ظاهرة تلفت النظر في هذا الخبر، لأنها لم تكن سائدة أو منتشرة في نقد صدر الإسلام، فالأخبار النقدية في هذا العصر كانت تفتقر في معظمها إلى التعليل، كما هو الحال في نقد العصر الجاهلي، ومن هنا فإن وجود التعليل في هذا الخبر، سينبّه الناس، ويلفت نظرهم إلى ضرورة العناية بتعليل أحكامهم النقدية التي يتناولون فيها الآثار الأدبية المختلفة، أو أصحابها، وعدم الاكتفاء بإصدار الأحكام العامة غير المعللة، لأن التعليل يعطي الأحكام النقدية مصداقية أكبر، ويمنحها القدرة على الإقناع والتأثير.

١٠- أثر الخليفة في النقاد بعده:

أثّر رأي الخليفة –رضوان الله عليه- بالشاعر امرئ القيس وشعره، في كثير من النقاد الين جاؤوا فيما بعد، وتناولوا شعر امرئ القيس في نقدهم، ووجّههم إلى قضايا مهمة في شعره، كسبقه الشعراء إلى كثير من المعاني التي ابتدعها، وسبق فيها غيره من الشعراء، فمن ذلك مثلا ما ذكره ابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء) من أنه:" سبق العرب إلى أشياء ابتدعها، واستحسنتها العرب، واتبعته فيها الشعراء: استيقاف صحبه، والتبكاء في الديار، ورقة النسيب، وقرب المأخذ، وشبه النساء بالظِّباء

([1]) من ذلك مثلا قوله في مطلع معلقته:

قفا نبْكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل		بسِقْطِ اللِّوى بين الدَّخولِ فحَوْمَلِ

وقوله:

سمُوتُ إليها بعدَ ما نامَ أهلُها		سُمُوَّ حَبابِ الماء حالاً على حال

والبَيْض، وشبّه الخيل بالعِقْبان والعِصِيّ، وقيّد الأوابد، وأجاد في التشبيه، وبيّن المعنى".[1] وغير ذلك كثير يضيق المقام عن استيعابه واستفائه.

المبحث الرابع– خصائص النقد في عصر صدر الإسلام

يلتقي النقد في عصر صدر الإسلام من حيث سماته وخصائصه مع النقد في العصر الجاهلي في الكثير من الجوانب، فقد كان هذا النقد استمرارا طبيعيا للنقد الجاهلي، باستثناء بعض الملامح والسمات التي دخلت إلى هذا النقد بتأثير الدين الجديد، وما حملته الدعوة الجديدة من تغيرات طالت مناحي الحياة المختلفة: السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ونحو ذلك، وكان لمادة النقد الأساسية وأعني بها الشعر، نصيبا لابأس به من هذا التغيير، فقد طرأت عليه بعض التغيرات في شكله وفي مضمونه، مما انعكس على النقد بالضرورة، وذلك لأن النقد تابع للأدب يتغير بتغيره، وينمو بنموه، ويزدهر بازدهاره، وسنرصد فيما يأتي الخصائص البارزة للنقد في صدر الإسلام، بعد أن وقفنا على موقف كل من: القرآن الكريم، و الرسول – صلى الله عليه وسلم– من الشعر والشعراء، وبعد أن قرأنا بعض الأخبار النقدية لكل من الخليفتين الراشديين: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب – رضي الله عنهما– وهذه الخصائص هي:

١– قلة النقد:

([1]) طبقات فحول الشعراء: ١/٥٥.

فالنقد في هذه الفترة كان قليلا نسبيا، ولعل الأمر يعود إلى قلة ممارسي النقد أصلا، وذلك بسبب انشغال الناس عموما بالدعوة الجديدة، وما أفرزته من معطيات جعلت الناس لا يتفرغون تمام التفرغ للاهتمام بالشعر ونقده كما ينبغي، فقد انشغل الناس بالقرآن الكريم، وحاز على نصيب كبير من اهتمامهم، إضافة إلى الانشغال بالدين الجديد وقضاياه المختلفة، ومحاولة المسلمين تثبيت أسسه وأركانه.

٢–تنوع النقاد:

فبعد أن كان الشعراء في العصر الجاهلي هم من يمارس النقد في الأعم الأغلب ولا سيما النابغة الذبياني، صرنا نجد تنوعا في ممارسي النقد في عصر صدر الإسلام، فإلى جانب نقد الشعراء في هذا العصر، نجد نقدا للرسول الكريم، ونقدا لبعض خلفائه كعمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما وغيرهما من الخلفاء والصحابة.

٣– الذاتية والتأثرية:

غلبت على هذا النقد الأحكام الذاتية والتأثرية التي تعكس موقف الناقد الخاص من الأثر الأدبي المنقود، وهذا يعني غياب الموضوعية في معظم هذا النقد، والبعد عن دراسة النصوص دراسة تحليلية تبين مواطن القبح والجمال فيها.

٤– إيجاز الأحكام النقدية:

معظم الأحكام النقدية في هذا العصر كانت موجزة ومقتضبة، كقولهم: أشعر الناس، وأشعر العرب، وأشعر الشعراء ونحو ذلك، وهذا بسبب اعتماد هذا النقد على الذوق، وغلبة التأثر الشخصي عليه، وتعبيره عن الانطباعات الأولية والسريعة التي تدور في ذهن الناقد لدى سماعه ما يُنشد أمامه من شعر.

٥– قلة التعليل:

لم يُعْنَ النقاد في معظم نقدهم بتعليل ما يذهبون إليه من أحكام، أو ببيان العلل لما يرونه من آراء في الشعر والشعراء، وإنما كانوا يطلقون أحكامهم غير معللة، إلا في القليل النادر، وإلا إذا كانت هنالك بعض الأسباب أو الدوافع التي تحرضهم على التعليل، وتدفعهم إليه دفعا، كأن يسأل أحدهم عن سبب هذا الحكم النقدي أو ذاك، كما في خبر الخليفة عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عندما سأله

عبدالله بن عباس عن سبب تفضيله للشاعر الجاهلي زهير بن أبي سلمى على الشعراء، فأجابه عن ذلك مبينا سبب هذا التفضيل، ولكن هذا التعليل لم يكن ليحصل لولا سؤال ابن عباس.

على أننا قد نرى في بعض الأخبار تعليلا بدافع ذاتي، وبرغبة شخصية محضة، بهدف تعليم الآخر، وإرشاده وتنبيهه إلى ما ينبغي أن يكون في النقد الصحيح، كما هو الحال في خبر الخليفة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – عندما علل سبب تقديمه للشاعر الجاهلي امرئ على غيره من الشعراء، لأنه لم يقل رغبة ولا رهبة، وأنه أصح الشعراء بادرة، وأجودهم نادرة، ولكن هذا التعليل من قبل الخليفة يدخل في باب الاستثناء وليس في باب القاعدة، وفي باب القليل والنادر، وليس في باب الكثير والشائع.

٦– الاهتمام بالشعر الجاهلي:

كثير من النقد في هذا العصر اهتم بالشعر الجاهلي وبالشعراء الجاهليين، وهذا واضح في معظم الأخبار التي سلف ذكرها، فزهير بن أبي سلمى مثلا أشعر الشعراء عند الخليفة عمر بن الخطاب، وامرؤ القيس أشعر الشعراء عند علي بن أبي طالب، وهكذا الأمر في أخبار أخرى.

٧– تنوع أمكنته:

فبعد أن كانت الأسواق في الجاهلية هي الأمكنة التي تدور فيها حلقات النقد، كسوق عكاظ في مكة، وسوق المدينة، أصبحنا في هذا العصر أمام أمكنة جديدة أضيفت إلى الأسواق لتبادل الآراء حول الشعر والشعراء، ومن أهمها حلقات المساجد، فكثير من النقد والحديث عن الشعر وقضاياه المختلفة، كان يتم في حَلَقِ المساجد، كاستماع النبي – صلى الله عليه وسلم- لكعب بن زهير مثلا، وخبر الخليفة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه- وحواره مع أصحابه عن أشعر الشعراء وغير ذلك كثير، وهذا من الجديد الذي طرأ على الموقف النقدي في هذا العصر.

٨– الاهتمام بالوظيفة الأخلاقية في الشعر:

غلب على نقد هذا العصر، الاهتمام بالوظيفة الأخلاقية في الشعر، أكثر من الاهتمام بوظيفته الفنية أو الجمالية، وكان هذا بسبب تأثير الدين الجديد، ودعوته إلى الفضيلة والأخلاق الحميدة، وسعيه

الدائم لتثبيت المُثُلِ والخصال الكريمة في نفوس الناس، ولذلك فقد كان يرضي النقاد في هذا العصر "من معاني الشعر ما:

- اتسق مع تعاليم الدين الجديد، كالدعوة إلى فكرة الإله الواحد، والشعر المتألّهِ النّابذِ للوثنية.

- تمشى مع مكارم الأخلاق التي نادت بها العقيدة الإسلامية، وحضّت عليها.

- وما دعا إلى سلوك قويم.

- ما نمّ على حكمة إنسانية خالدة، وموعظة رشيدة".[1]

ولكن هذا الاهتمام بالوظيفة الأخلاقية في الشعر، وإن كان هو الغالب على نقد هذا العصر، لم يكن يعني غياب الاهتمام بالجوانب الفنية والجمالية في الشعر غيابا تاما، وإن كان قليلا إذا ما قورن بالجانب الأخلاقي، فمن ذلك مثلا إعجاب الرسول – صلى الله عليه وسلم – بالشاعر امرئ القيس وتفضيله على الشعراء، فقد روي أنه سئل يوما: من أشعر الناس؟ فقال: الذي يقول:

أَلَمْ تَرَياني كلما جئتُ طارقاً وجدتُ بها وإنْ لم تَطَيَّبْ طِيْباً[2]

فمن الواضح أن إعجابه بهذا البيت هو إعجاب فني، وليس إعجابا أخلاقيا أو دينيا، وذلك لأن البيت لا يتضمن أي معنى أخلاقي.

ومن الأمثلة على الاهتمام بالجانب الفني كذلك ما رأيناه عند الخليفة علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– في خبره مع أبي الأسود الدؤلي وتفضيله لامرئ القيس لأسباب لا تتعلق بالجانب الأخلاقي أو الديني.

([1]) دراسات في النقد العربي القديم: ٢٨.

([2]) الجامع لأحكام القرآن: ٤٩/١٥. والبيت في ديوان امرئ القيس: ٤١، وأصله:

ألم تريانى كلما جئت طارقا وجدت بها طيبا وإن لم تطيب

وقد رواه الرسول مكسورا فقدم فيه وأخّر، لأن المعروف عنه أنه لا ينشد الأشعار كاملة، وعندما كان يُسأل عن ذلك يقول: ما أنا بشاعر، ولا ينبغي لي. انظر حول إنشاد الرسول الشعر، كتاب: الإسلام والشعر، للدكتور: سامي مكي العاني: ٥٥وما بعدها.